قصص

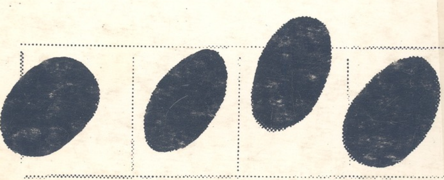
لطيفة الزيات

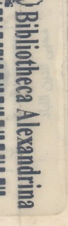
شرقيات

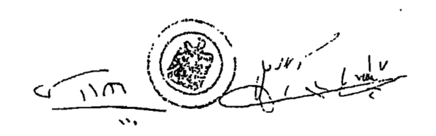




الرجل الذى عرف تهمته







الرجل الذى عرف تهمته

DL

الطبعة الأولى ، ١٩٩٥

٥ شارع محمد صدقى ، من شارع هدى شعراوى
باب اللوق ، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣

تصميم الغلاف : محيى الدين اللباد



الرجل الذى عرف تهمته

لطيفة الزيات

دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى ذكرى أخي محمد ...

الهشيم

هشيم الزجاج يتراكم في الخارج موجة فوق موجة، موجة أعلى من موجة، أكاد أسمع أسنة الزجاج وهي تتصادم بالأسنة وهي ترتفع المرة بعد المرة هذا الارتفاع المحسوس وغير الملموس، وأنا أكتب لكي لا أصرخ منبهاً للخطر الذي يطبق علينا من كل جانب، يهدد بدفننا جميعاً تحت ركامه.

لولا الهشيم ماكتبت، لاأحد يرغب في الكتابة هنا في السجن، ولافي أي شيء. لايبقي التدريب في السجين رغبة ولا إرادة. ولست أعرف متى بدأ هذا التدريب وبالتالي متى ينتهي، ولا لأي غاية نتدرب. لايعرف الإجابة على الأسئلة هنا سوى أساتذة تلمس المنطق حيث لامنطق، وبالطبع صاحب الصوت الذي يصدر من كوة في أعلى البرج.

وفي مرحلة مبكرة تخيلت أنا أن التدريب مرحلة ستنقلنا إلى مرحلة أكثر تقدماً وإن لم أعرف على وجه التحديد ماهية المرحلة التي ينتهي إليها التدريب. أساتذة تلمس المنطق يعرفون. قلت ربما طلبوا إلى الأصلح منا ومن صمد أكثر للتدريب أن يقوم بمهمة ما، بعمل محدد : تسميم الأنهار مثلاً، إنضاب المحيطات، اقتلاع الخضرة من على وجه الأرض أو امتصاص الأوكسجين من الهواء. ولكني لم أكن إذ ذاك قد تدربت بما فيه الكفاية وإلا لعرفت أن التدريب لايستهدف سوى التدريب. ويبدو أنني لم أتدرب بعد بما فيه الكفاية وإلا لما كنت الآن أكتب رغم كل المحاذير والمخاطر وأكتب مثل هذا الكلام الخطير.

وأنا أعرف أن الكتابة هنا تعرضني للموت، وعلى أحسن تقدير لنفي في الطابق المسحور في جوف الأرض، هذا إن التقطت أدوات الاستماع جريان القلم على الورق، أو وشى بي أحد رفاقي في العنبر. الوشاية آفتنا. ولكن منذ رأيت هشيم الزجاج يعود يفترش الأرض دون أدنى انفجار هذه المرة لم يعد أمامي ثمة اختيار سوى أن أصرخ أنبه الآخرين إلى الخطر الذي يحدق بنا أو أن أكتب لكي لا أصرخ. وأنا اخترت أهون الضررين، فأنا رغم كل المخاطر قد أفلت بالكتابة ولكن الصراخ سيقودني حتما إلى الطابق المسحور في

جوف الأرض، هذا إذا اتسع وقتي للصراخ ولم تُردِني رصاصة قتيلاً قبل أن تكتمل صرختي.

منذ أن رأيت بالأمس هشيم الزجاج يعود يفرش الأرض، هذه المرة بلا تمهيد بلا انفجار ضخم يهز الأرض، تغيرت نظرتي للأمور. وربما تغيرت منذ أمد بعيد يوم الانفجار الكبير الذي نزحنا بعده هشيم الزجاج معاً وألقيناه بعيداً عنا. صحيح أني أدرك أني هالك لامحالة سواء ساقوني إلى الطابق السحري أم لم يسوقوني، ولكن شيئاً ما لا أدري ماهيته قد استجد يجعلني أتمسك بالحياة، وإن كانت حياة لاتستحق أن يتمسك بها إنسان. وهذه بدورها فيما يبدو فكرة جديدة عليّ أو نظرة جديدة للأشياء يمليها هشيم الزجاج الملعون الذي قلب حياتي رأساً على عقب، فما كنت أفكر من قبل هذا النوع من التفكير، وإن شئت الدقة لم أكن أفكر على الإطلاق. لايفكر أحد في السجن، على الأقل في الدور الأول الذي أعيش فيه، وفي الدور الثاني حيث يعيش المدربون. في الطابق المسحور في جوف الأرض يعيش من يفكرون، وفي حجرة الاجتماع في أعلى البرج حيث يجتمع أساتذة تلمس المنطق. أما في الطابق الأول فنتدرب، الوارد يسموننا أو الجدد وأنا أستغرب هذا الاسم الآن ولأول مرة، وأنا لا أتذكر متى أتيت إلى هذا السجن حتى يخيل لي أحيانا أني ولدت فيه.

وعلى كل فالشيء الوحيد الأكيد أننا سنموت هنا جميعا تحت أسنة الزجاج بما فينا صاحب الصوت يصدر من كوة في أعلى البرج يبدل الحال بحال. سيصلهم الهشيم أينما احتموا وهذا ما أنا على يقين منه، قد نسبقهم نحن في الدور الأول ولكنهم سيلحقون بنا حتماً. وهذه الحقيقة الأخيرة تدخل على نفسي بعض الرضا، وأرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أني إنسان شرير أو أني شمشون الجبار الذي هدم المعبد وهو يقول: عليّ وعلى أعدائي. أنا إنسان مسكين أتدرب لأعيش ولم أفكر قبل هذه اللحظة أنهم أعدائي وإن كانوا فعلاً أعدائي، ألاخبرني؟ لم لايرون كما أرى هشيم الزجاج وهو يعلو ساعة بعد ساعة، ولِم أصمّوا آذانهم عن تحذيري؟ لِم كذبوني ونعتوني

بالجنون؟ ألم يغرونني بالانتقال إلى طابق المدّربين إذا ماقررت علنا وأمام الجميع ألا هشيم هنا من الزجاج المسنون وأن هذا الهشيم واقع بالأوهام ليبلو به الله عباده الصابرين!

ها أنا ألف وأدور قبل أن أحكي لك الحكاية، وأنا الذي انتويت أن أحكيها لك من البداية إلى النهاية دون لف أو دوران لأتخلص من ذلك الرعب القاتل الذي يتملكني أن ندفن جميعاً تحت ركام الهشيم، ولأتحرر من هذا الشعور الفادح بالمسؤولية الذي جدّ فيما جدّ عليّ، والذي يدفع بصرخة التحذير إلى فمي فأختنقها وأختنق بها.

أتململ في جلستي، تطرأ عليّ فكرة أستبعدها. هذا كثير! أليس دم رفاقي في يدي، ودم الموجودين في الطابق ا لسحري في جوف الأرض؟ هذا إذا كانوا موجودين فعلاً فما من أحد ذهب هناك يعود وأنا الآن أتساءل ألم تتلوث يداي بدمائهم من زمن بعيد؟

وأجد نفسي أدخل في مشكلة فلسفية من طراز جديدعليّ! أين مسؤوليتي من كل هذا؟! لست أنا الذي حرضتهم على التمرد على التدريب ولا إثارة الأسئلة حول هدف ونوعية التدريب والمنطق الذي يتحكم فيه، ولا أنا الذي سقتهم إلى جوف الأرض. أنا إنسان عادي مسكين أحكي لك حكايتي حتى لا أصرخ بالحقيقة فربما استطعت أنت ياصديقي أن تفعل شيئا. أنا لا أطالبك بما لا أستطيع أن تصرخ وأتفرج أنا عليك وأنت تساق إلى جوف الأرض، ربما استطعنا معا. لا لن أطالبك بما لا أستطيع أنا، كل ما أريد هو أن تنصت إليّ، أن تفهمني.

أنت تعرف بداية الحكاية يارفيقي فلِمَ تُشيح بعينيك كلما التقينا في الممرات الضيقة؟ لم لا تدع عيوننا تومضُ ملتقية بالمعرفة؟ إنها إشارة، مجرد إشارة التي أنتظرها منك فإلام الإنكار يارفيقي؟ لايمكن أن أكون واهماً، رغم الجراح بلا آثار للجراح، لايمكن أن أكون واهماً. أين اختفت دماء الجراح؟! رغم عمى المدرب الذي لايرى الجراح رأيتك أنا بعينيّ هاتين

تميل، تكتم تأوهاتك، تنتزع أسنة الزجاج من بطن قدمك، من بزّ ساقك من ثنية فخذك فإلى متى الصمت يارفيقي؟! حتى تذبح أسنة الزجاج حبال أصواتنا؟! وهل كتب علينا أن نردم تحت الأسنة دون ومضه معرفة؟

مصيري إلى جوف الأرض لاشك محتوم؛ سواء انطلقت صرختي أم لم تنطلق. فها أنا أنزلق إلى مطلب جديد. ما أعجب المطبات التي أنزلق إليها من يوم انغرست الأرض بهشيم الزجاج المسنون... ها أنا أنفعل وكأن الانفعال هنا من المسموحات! ها أنا أنفعل وكأني لم أحرق حقي في الانفعال! ماهذا الجنون الذي أنزلق إليه خطوة بعد خطوة؟ أنا إنسان مسكين أنا ضحية، هم فعلوا بي، هم أحالوني إلى آلة وأحالوك. لم أكن أنا الذي أرقبك دون أن أراك طوال هذه السنين ولا أنت الذي ترقبني. لم تكن يدي هي التي جلدتك ولايدك التي جلدتني. يد الآلة التي صنعوها بالتدريب مني ومنك يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، لانكف ننتقل من مرحلة من التديب إلى مرحلة، وإلى جانب المراحل العمرية والجنسية التي تصل بسيكولوجية الفرد والجماهير، والتي تتعدد فيما بينها حتى تستحيل على الحصر، تاتي اجتهادات المدربين وحرصهم دئما على المزيد من التجويد والتجديد.

وبينما نحن نفقد وعينا وإرادتنا يوما بعد يوم في محاولة لمجاراة التجويد والتجديد يأتي هذا الصوت الجهوري المحايد من الكوة أعلى البرج بتوجيهاته فيقلب كل شيء على عقب، ويضع المدرّبين والمدربين في حيرة من أمرهم ولانعود نعرف أين نقف ولا أين الخطأ والصواب؟ ولم نعاقب ولم نجازى؟ وماكان خطأ الأمس يصبح صواب اليوم ليستحيل إلى خطأ اليوم التالي. وأساتذة تلمس المنطق يعملون على آلاتهم الإلكترونية من أحدث طراز في حجرة الاجتماعات في أعلى البرج، يرسمون خطوطهم البيانية متتبعة تفاعل مجموعة العوامل التي تتحكّم في البشر، أيا كانت هذه العوامل. أي شيء يقدر عليه العقل البشري لم تستوعبه خطوطهم البيانية وهم يتلمسون منطق الأشياء حيث لامنطق للأشياء؟! الإجابة حاضرة على لسانهم تمنطق دائماً

وأبداً وتبرز ونحن نغيب عن الوعي يوماً بعد يوم وإلى آلات تتحول. لا. لم أكن أنا ولا أنت، كانت الآلة. هل كانوا هم الجناة حقاً أم نحن؟!

يقفز إلى ذهني خاطر لابد وأن أفضي به إليك قبل أن يردمنا الهشيم: وإن كتب علينا الموت فلنمت مطهرين من الذنوب. أنا الجاني... أنا وأنت. لست برفيقك ولا أنت برفيقي. أعدمت حقي في رفقتك وأعدمت أنت حقك في رفقتي.

كنا رفاقا فحسب يوم سألنا من أين أتى الانفجار العمد، يوم تجمّعنا نعمل معا ننزح أطنان الزجاج، نزيل من حولنا أسباب الخطر. كنا رفاقا فحسب يوم ضحكنا تلك الضحكة الصافية التي تلد أطفالا بعيون سوداء وعسلية، خضراء وبنفسجية، أما فيما قبل وفيما بعد فقد أعدمنا حقنا في الرفقة، وها أنذا أتخبط الآن وسط هشيمي أبحث عنك، وربما كنت أنت تبحث عني وسط هشيمك، ربما كنت غير موجود، ربما وجدتك يوما وربما لن أجدك أبدا، وربما كنا الآلاف المؤلفة يتخبط كل وسط هشيمه يبحث بلا جدوى عن رفيق أهدر رفقته.

وأنا أعرف الآن يارفيقي لم لازمني الشعور بالذنب طيلة سجني كنت أقول لنفسي مامن أحد يسجن دون ذنب ولابد وأن أكون مذنبا، وكنت أقول ربما أذنبت في حياة سابقة على هذه الحياة فلا أعرف لنفسي في هذه الحياة ذنبا وأنا الآن أعرف. وكنت أقول ربما أكفّر عن ذنب ارتكبه آبائي وأجدادي فأنا لا أعرف لي ذنبا وأنا الآن أتخبط وحدي في هشيمي أعرف ذنبي، بيدي أهدرت حقي في التفكير في الانفعال في الرفض وبالتالي في رفقتك.

يارفيقي أينما كنت تتخبط في هشيمك لم تشق الأسنان المدببة حبال الصوت بعد ولا أملك حتى أن أهمس، أدوات الاستماع تحت وسادتي في حشيتي في أركان سقف العنبر، سحبتها لتوي من تلافيف مخي ومن شرايين قلبي، من مسام جلدي. لا تخف يارفيقي، قلمي لن يتخبط الآن على ورقتي، قلمي يرق حتى يستعصي على كل أدوات الاستماع مجتمعة. ليس

الخوف هو الآن الذي يسيرني، إنه الشعور بأنك هناك تبحث عني وسط هشيمك، إنه الشعور بأن هذه الحكاية ربما تقربني منك، وربما تعيد ما انقطع بيننا، ماقطعناه بأيدينا. ليس بكثير علينا أن نموت بومضة المعرفة في أعيننا.

ذلك اليوم حين أصبحنا على الانفجار الكبير لم يكن هناك أدنى شك أنه انفجار عمد بفعل فاعل، قال بعض مدربينا يجتهدون : زلزال، كارثة طبيعة ولم يصدقهم أحد. وخرجنا لنجد الطرقات والقاعات والمدارس والمكاتب والمكتبات والمعامل والملاعب مفروشة ببساط من هشيم زجاج لم يكن أحد ليجرؤ على التكذيب ونحن نخوض الركام نجمعه معا ونزيحه بعيدا. والتزم أساتذة تلمس المنطق على غير العادة الصمت والصوت الذي يصدر من كوة أعلى البرج سكت، وكأنما قد مات.

بالطبع عاد كل شيء إلى ماكان عليه في اليوم التالي، وذهب أساتذة المنطق إلى أن شيئا مالم يحدث، لا الانفجار ولاهشيم الزجاج، وإن كان شيئا ماقد حدث فقد حدث بالأوهام ليبلو الله عباده الصابرين. وعاد التدريب محموما أكثر مما يكون عادة والصوت الصادر من أعلى البرج أكثر إلحاحاً مما يكون عادة. وكانت أقدامنا وأيدينا المخضبة بالدماء ذلك اليوم الشاهد الحي على حقيقة الهشيم. كنا قد خضنا موج الهشيم ونحن ننزحه خارجاً عن المكان، واستطاعت بطون الكفوف والأقدام أن تميز المربعات والمثلثات والمسدسات والمسبعات دون حاجة إلى النظر ووهج الشمس على سطح الزجاج البللوري يرخي الأجفان على العيون. ورجعنا إلى العنابر بالدم والهشيم في أجسادنا، في بطون أيدينا وأقدامنا، منهاما انتزعناه ومنها ما استقر ليصبح جزءاً لايتجزأ من أجسادنا.

كنا مرهقين هذا اليوم، غاية في الإرهاق، وكانت الدماء تنضح من أجسادنا ولكننا عرفنا يومها سعادة ربما لم نعرفها من قبل ولن نعرفها من بعد. في تلك الليلة تواصلنا ونحن نحكي عن تجربتنا في إزاحة هشيم الزجاج وتذاكرنا كل تفصيلة من تفاصيل ماحدث في حرية وكأن آلات الاستماع

لاترصد كل كلمة من كلماتنا. كان هناك هذا الشعور بالاعتزاز بالذات، بالاعتداد بالقرب وبرفقة الآخرين، ونمنا ليلتها في سلام كأن آلات الإرسال التي عادة ماتنبح ليل نهار لاوجود لها على الإطلاق، ولم أستطع أن أرجع هذه السعادة إلى أسبابها تلك الليلة، ولم أهتم كثيرا بأن أفعل. ولكني أستطيع الآن ربما لأني أهتم : كنا لأول مرة نعمل جميعا معا عملاً يكتسب المعني، عملاً نعرف مقدماً ماهيته والهدف الذي يستهدفه. في الممر الطويل العريض الذي يجمع كل العنابر اجتمع الرجال والنساء يزيحون بالجاروف أكوام الزجاج ويجمعون الأكوام في جرادلٍ يلقون بها بعيداً خارج المكان. لم يقسم أحد العمل يومها، اختفى فجأة المدربون وقسّم الرجال والنساء العمل فيما بينهم واستقمت أكثر من مرة وأنا أمسح العرق عن جبيني وفي كل مرة كان عليّ أن أؤكد لنفسي أن هؤلاء هم نفس الرجال والنساء الذين أعايشهم صباحاً ومساء... لاثقل هناك ولا آلية، لا أذرع مرتخية ولاسيقان لاتعرف موضع الأقدام... لاوجوه تختفي خلف أقنعة صماء خرساء. في حركة كل منهم ومنهن معنى وبالتالي اعتداد وجمال لاحد له. من أين واتتهم هذه الليونة الجسدية. هذه الرشاقة، وهذه السكينة؟

واصطدمت امرأة وهي تعود تجري بالجردل برجلٍ وسقطا على الأرض تحضنه تحميه من الزجاج ويحتضنها واستقامت المرأة ضاحكة وشعرها الأسود يتموج على جبينها، ومن بين رموشها ومضت فرحة الحياة. وضحكنا وضحكنا معاً وانبثق إلى الوجود العشرات من الأطفال بخدود بارزة وردية بعيون سوداء وعسلية خضراء وبنفسجية، زرقاء ورمادية. من أين أتى الأطفال؟ ليس في طابقنا أطفال، ربما من بقية الطوابق، وربما أتت بهم ضحكة المرأة الخالصة ومئات الضحكات التي لاقتها.

لازلت أسمع هذه الضحكة رغم أن شهورا بأكملها قد انقضت على الانفجار، رغم السجن ورغم الهشيم تفتح أمامي هذه الضحكة آفاقا باهرة لم أكن أحلم بها. لم تكن الضحكة الأولى ولا الأخيرة التي سمعتها ولكنها

تبدوَ لي الضحكة. ونحن نضحك كثيرا، وربما لايضحك أحد مثلما نضحك، بعضنا يحترف الضحك، وبعضنا يحتمي بالضحك وبعضنا يجن وهو يضحك. ولكنك ولاشك تعرف الفارق بين ضحكة وضحكة..
لاخشونة هناك في الضحكة التي كثيراً ما تتردّد في سمعي، لااختناق، لاافتعال، لابلادة، لاهستيرية لاغواية ولادعارة. ربما كان الصفاء الخصب الذي أتى من حيث لاندري بهذه المجموعة من الأطفال.

وعلى كل فقد كان كل شيء رائعاً ذلك اليوم وفي المساء حيث تمتّعنا لأول مرة وربما لآخر مرة بهذا الشعور بالرفقة والانتماء، وحيث نمنا ونحن متفقين جميعاً لأول مرة على حقيقة واحدة لا ينازع فيها الواحد منا الآخر ولايملك أحد أن يسلبها منا، لا أساتذة تلمس المنطق وأوراقهم المنشورة ولاحتى الصوت في الكوة أعلى البرج. ومر اليوم وكأن لم يكن وعاد كل شيء إلى ماكان وحلت بنا آفة النسيان وفقدنا الذاكرة ومرحلة من التدريب المحموم تنقلنا إلى مرحلة إلى أن كان الأمس يوم الجهاد الذي يتكرر في الثالث من كل شهر.

لم أر شيئاً يوم الجهاد ولم أسمع شيئاً. لم ألحظ الزجاج عاد يفترش الأرض من جديد، ولم أسمعه وهو يتهشم تحت وقع الأحذية، ولم أشمه ورائحته تملأ خياشيمي بغباره الرمادي المشبع بذارت الزجاج. كنت قد تحولت إلى هذا الثور الهائج المليء بالحقد المصمم على الانتصار كما نتحول عادة في أيام الجهاد المشهودة، وإني إذ أنظر إلى الأمس الآن لا أملك سوى أن أحتقر نفسي، وأبصق على الوحش فاقد الحواس فاقد المعنى الكامن في أعماقي، صحيح أنهم صنعوه، ولكني أنا الذي مكنتهم من صنعه، الرفاق في جوف الأرض، رفضوا أن يكونوه.

وفي الصباح الباكر أمس اصطف كل فريق من طابقنا خلف مدربه والتشح بلون مدربه بعد أن خلع عنه الثياب الرمادية. وتتعدد ألوان الثياب التي يرتديها المدربون وفقا لطبيعة المعركة. وفي الشهر السابق كانت المعركة بين

اللونين الأبيض والأسود، وفي الشهر الذي يسبقه بين الأحمر والأبيض أما في هذا الشهر فالمعركة بين الأحمر والبمبي. وأنت لاتستطيع أن تتكهن بالنتيجة قبل أن تبدأ المعركة، حتى لو بقيت في السجن بما فيه الكفاية وتوهمت أنك عرفت أسراره ودهاليزه، ومن من المدربين مرضي عنه ومن من المدربين مغضوب عليه، فالخريطة الاجتماعيةَ هنا في تغير مستمر تنقطع الأنفاس دون ملاحقته، ويوم لك ويوم عليك، والمدرب في حركة انتقال مستمر ما بين القاع والقمة. وهذا مايجعل عملية التكهن مستحيلة قبل قراءة أسماء الفريقين المتحاربين(نعم هي حرب ونحن الذين نحارب. حرب من؟ المدربين؟ أساتذة تلمس المنطق؟ أصحاب المال والمصالح الحقيقية؟ أم الصوت الصادر من الكوة أعلى البرج؟!) أم هي حرب من أجل الحرب، جزء لايتجزأ من ترويض كل ماهو إنساني ومدّ الحبل لكل ماهو حيواني متوحش فاقد للحس والمعنى؟!

وإذا اكتملت قائمة أسماء الفريقين المتحاربين دون ذكر اسمك، وأفلتّ بجلدك لتتأمل هذه القائمة لم يعد هناك مجال للتكهن، والنتيجة معروفة سلفاً ومضمونة كما يقولون في التعبير الأثير هنا، مائة في المائة، إذ لايمكن لتلك المجموعة من المرضى والعجائز والضعاف في اللون الأحمر أن يتغلبوا على هؤلاء العتاة في اللون البمبي والفوز معقود ولاشك لفريق اللون البمبي وأنت لاتتوقف لتفكر أن العملية عملية قتل لامباراة، سواء أكنت تلبس البمبي أو الأحمر، بل تندفع كالثور إلى الحلبة إن كنت محارباً وإلى صفوف المتفرجين إن كنت مشاهداً تصرخ كالمجنون تشجع فريقك أيا كان فريقك، لاتشعر كما ينبغي أن تشعر أن الأناشيد الحماسية الصادرة عن الميكرفونات تصادر صوتك فلا يصل إلى فريقك، يفور الدم في رأسك في نشوة والفريق المعادي يتخبط في قضبان الحلبة، يلتمس الخلاص حيث لاخلاص، يلتوي حول القضبان لينفذ من القضبان ولاينفذ، ينبطح على الأرض يتمنى أن تنخسف به الأرض ولاتنخسف، تقفز على مقعدك

مخموراً بخمر الأناشيد الحماسية، ولايعود دم الفريق المعادي يكفيك، أنت تريد الآن دم الجمهور المشجع للفريق المعادي، وأنت تنال بغيتك لحظة وجمهور المشاهدين يصطدم بعضهم ببعض، لحظة تطول بما فيه الكفاية ليسيل دم المشجعين ولكنها لاتدوم بما يكفي لكي تتوهم أنك يمكن أن تحصل على ماتريد، حتى لو كان ماتريد دم الآخرين، ولايلبث المدربون أن يتدخلوا لإحلال النظام ولاتلبث المعركة أن تنتهي بالضربة القاضية.

وفي طريقي للعودة إلى العنبر لاحظت وأنا أقذف بعض مشجعي اللون الأحمر بالتراب مافاتني ملاحظته في الصباح. قذفت بذراعي إلى أبعد ما يمكن أن أقذف به وفردت قبضتي لألقي في وجوه أعدائي بالتراب، ولم تنفرد قبضتي. وضحك رجل في بذلة حمراء ضحكة صفراء. وأنة عميقة تصدر مني، وسائل أحمر ملوث بالتراب يتساقط من كفي في قطرات كبيرة تتسع المرة بعد المرة. وأخفيت يدي تحت سترتي، قلت لابد وأنه جرح من آثار الالتحام مع الأعداء وانتحيت جانباً. وبقبضتي اليسرى فردت اليمنى في بطء وفي ألم إصبعا بعد إصبع. وفي كفي الأيمن وجدت أسنة الزجاج مغروسة مدببة ومثلثة ومربعة، وقلت ربما بقايا متخلفة من ذلك اليوم البعيد.

وفي الممر الخارجي المؤدي إلى العنبر تبددت محاولاتي لخداع الذات... كان بساط الزجاج قد عاد يفرش الأرض. الآلاف المؤلفة من قطع الزجاج المدبب متراكمة نافرة أكواماً بعد أكوام تنشب أسنتها في قرص الشمس لحظة المغيب وتعود مصطبغة بلون الدم.

لم يكن الرعب هو الذي عذبني تلك الليلة، كنت على يقين أننا سنجتمع مرة أخرى كما اجتمعنا من قبل على عمل ذي معنى وهدف يوحدنا، ونضحك تلك الضحكة التي تلد أطفالاً بعيون سوداء وعسلية، خضراء وبنفسجية، زرقاء ورمادية ونحن نجمع أسنة الزجاج بالجاروف، ونلقيها بعيداً، بعيداً عن المكان.

كان الشعور بالاختلاف والغربة هو ماعذبني تلك الليلة. لم يلاحظ

أجِد الزجاج وهو يتموج على الأرض، وإن لاحظ واحد منهم فلا يبدو عليه مايستدل منه أنه لاحظ . أطلت النظرات من عيونهم المنسحبة خاوية ووجهت السؤال وكأني لم أوجّه السؤال، لم تفصح عيونهم عن شيء على الإطلاق في الممر الخارجي وفي عنبر السجن. وصارحت أقربهم إليّ : ومن أين يأتي هشيم الزجاج؟ هل سمعت انفجاراً؟! هل رأيت زجاج النوافذ وهو يتحطم؟ قال مشيحاً بيده مستبعداً كلامي. وتمزقت أنا لوهلة بين حقيقتين، حقيقة وجود هشيم الزجاج، وحقيقة ألا انفجار يؤدي إلى هشيم الزجاج، ولفت الحقيقة الأولى كل حقيقة عداها وصوت الزجاج وهو يتصادم بعضه ببعض، وهو يتموج موجة بعد موجة، موجة أعلى من موجة، يصلني من نوافذ العنبر العالي. وانتويت أن أبلغ الأمر لمدربي في الصباح.

أثناء التدريب هذا الصباح لم يعد ثمة شك ونحن نخوض أمواجاً من هشيم الزجاج. وقررت وأنا أقف على ساق واحدة لمدة ساعة أن أقترح على مدربي أن نزيل الهشيم كما أزلناه في المرة السابقة. وبدا لي قراري جريئاً ومتهوراً فما من أحد في هذا المكان يقترح علي أحد شيئاً، وإن حدث، ونادراً مايحدث، لايلقى الاقتراح أي استجابة، يغيّبه الصمت وكأن لم يكن. وقررت وأنا أزحف على أربع لمدة الساعة التالية أن أكتفي بلفت نظر مدربي إلى الوضع الذي لايستشعره بالضرورة لأنه يلبس حذاءا ذا سيقان طويلة. واستجمعت شجاعتي قبل أن أنطرح، وفقاً للتدريب التالي، على ظهري بعيون جاحظة كعيون الموتي وبلسان يتدلى من الفم، وتوقف المدرب لحظة كأنه فقد النطق ثم قال :

– ومن أين يأتي هشيم الزجاج؟! هل سمعت انفجاراً، هل رأيت زجاج النوافذ يتحطم؟!

وهل يطلب الهشيم انفجاراً كل مرة؟! في جوف الأرض مغروس، يربض، ينتظر، يتربص، كلما استفحل الحال ينمو كما ينمو النبات المتسلق يعلو مهدداً بالإطباق علينا. الهشيم منا، الهشيم فينا، تواطأنا جميعا على التستّر عليه.

- أين هذا الزجاج؟!

سأل مدربي في استنكار وهو ينتزع قدميه بصعوبة من أطنان من قطع الزجاج ويلتف حول نفسه في استدارة كاملة. وانتويت ألا أسلم هذه المرة بواقع غير الواقع أيا كانت الأوضاع، وأشرت بذراعي إشارة واسعة شملت المكان، وحاول مدربي أن يقتلني بالضربة القاضية ولم يفلح رغم مافي جعبته من عجائب : حقيقة الهشيم تلغي في وعيي كل ماعداها، هشيم الزجاج يسكنني. أكاد أسمعه الآن وأنا أكتب في العنبر وهو يتموج مسنوناً في الخارج يهدد بدفننا جميعاً تحت ركامه ولابد فيما يبدو أن أصرخ عالياً أبدد كل الأكاذيب، وأعلن الناس بالخطر الذي يهددهم. لم تعد الكتابة تغني عن الصراخ وموجات الهشيم تكاد تبلغ الحلقوم.

ها أنا أصرخ الآن، صرختي تعلو بكل الصرخات الموءودة، تستطيل بمدى القهر الواقع علّي وعلى الآخرين : تغتني بصرخات الآخرين. آلاف الصرخات تنذر بالخطر الجاثم، ومدربي يحاول أن يئد صرختي هذا الصباح، يتحداني أن أبرز أثر الجراح التي تركها الهشيم المزعوم في جسدي أنضو عني ملابسي في تحد، جراحي عميقة إلى ما لامدى غائرة ووحشية ولا أثر للجراح، في الكَبد استقرت والقلب والعقل والأطراف، ومدربي يسألني أين الجراح وهشيم الزجاج يسكنني والجراح غائرة ووحشية وصرختي تستطيل وصرخات الآخرين.

(١٩٦٩)



كلمة السر

أحكي هذه الحكاية من الزنزانة رقم ٣ عنبر ٧ سجن مصر، أتلمس الكلمات على الضوء الباهت الذي يتسلل مع طلعة الصبح من قضبان حديد قبوة الزنزانة. عليّ أن أستعد بعد قليل لإيداع الورق والقلم في مخبئها السري حتى لايجده السجان حين يفتح الباب.

كنت أتمنى أن أحكي لك، وباعتزاز شديد عن المهمة التي قمت بها بنجاح وأدت إلي إنقاذ عبد الله من سجن وإعدام مؤكد. رافقته لمدة شهر بأكمله، أناور وأداور، أصرخ وأهمس، أكر وأفر، أظهر وأتخفى، أنام وأصحو أنتزع عبد الله من مخالب الخطر المرة بعد المرة، أقيل عثرته كلما تعثر، أمنحه من ذاتي ومن كياني كياناً، من عيني وهجاً ومن قلبي نبضاً، أشبعه من جوع وأرويه من عطش، أمرضه إن مرض، أعيره صوتي حين يعز صوته صارخاً هامساً محتجاً غاضباً متوسلاً، وأنا أندفع به ومعه إلى الأمام غير هياب ولا وجل حتى أصل به إلى بر الأمان... أية أهوال لم أخضها ؟! وأية تضحيات عزت عليه؟

نعم انتويت أن أحكي حكاية عبد الله، ولكنني ساضطر فيما يبدو أن أحكي حكايتي أنا بدلا من حكاية عبد الله على ضوء المستجدات التي جدت في السجن وما أكثرها! ولو حكيت حكاية عبد الله لما أتيت بجديد، فقد اكتشفت في السجن أن حكاية عبد الله معادة ومكررة على ألف صورة وصورة، وكأن كل إنسان قد رافق ذات مرة عبد الله. وأنقذه ذات مرة من السجن والإعدام. وتتعدد صور عبد الله في السجن مع كل حكاية حتى يخيل لي أنه ألف عبد الله وعبد الله. وأتساءل أحيانا هل عبد الله الذي يتحدثون عنه هو عبد الله الذي عرفته ؟ ويصل بي الأمر أحيانا إلى التشكك في وجود عبد الله أصلاً.

وليس هذا بالشيء الوحيد الغريب الذي حدث لي في السجن. ففي الفترة القصيرة التي قضيتها في الزنزانة حدثت أشياء عزّت على خيالي وستعز قطعاً على خيالك. وكل ماأرجوه أن تصدقني فأنا أحكي الحكاية كما حدثت بالتمام والكمال والله على ما أقول شهيد. أنا أملك الآن أن أقول

بكل ثقة واعتداد بالذات : افتح ياسمسم فينفتح باب الزنزانة لاباب الكنز كما في قصة علي بابا والأربعين حرامي، وإن كان قد اتضح لي مع مرور الأيام أن باب الزنزانة ينفتح عن كنز من نوع فريد، كنز لايملك أحد أن يسلبه من الإنسان الفرد.

الوقت لم يتسع لي هنا لتفهم ماحدث تفهماً كاملاً، بدا ماحدث أحياناً أشبه بالخيالات وإن كان من الخيال ماهو أصدق من الواقع وأكثر تأثيراً. بعد يومين من إحكام باب الزنزانة عليّ، وعلى وجه التحديد بعد أربعة أيام من إفلات عبد الله من قبضة البوليس السياسي(استغرق التحقيق المبدئي معي فى مبنى المباحث يومين) بدأت ظاهرة عجيبة تظهر في انفصال كامل عني وعن قدراتي(لم أكن قد تلقيت بعد رد الرسالة ولاوعيت بعد بكلمة السر).

كنت أجلس على «البرش» في ركني غارقة تماماً في التفكير في إبلاغ الرسالة لمن يهمه الأمر. وبينما أنا أضرب أخماساً في أسداس، كما يقولون، رأيت باب الزنزانة مفتوحاً. لم أره وهو ينفرج رويداً عن السجان كما ينفرج عادة كل صباح ولاسمعت أزيزه. هل يتلاعب بي السجان؟! قفزت إلى الباب المفتوح.امتد بصري إلى الممر الطويل يفصل بين صفين من الزنازين المتراصة المتشابهة ومامن سجان، وضحكات وهمسات وصرخات الساهرين في ميدان القلعة تكسر الصمت الرابض على ممر السجن المتلفع بالنور الأصفر الهاتك للظلمة، وتحملني على أمواجها، تلقيني خارج السجن أسعى مع الساعين. وكذبت نفسي إذ ذاك(لم أكن قد وقعت في الحب بعد) . وقلت أضغاث أحلام والأصوات تتلاشى وكأن لم تكن والباب يعود بعد ماكان مغلقاً، والسؤال يلف ويدور في رأسي لم يزل : كيف أبلغ من يهمه الأمر أني أديت مهمتي بنجاح؟

تتكرر ظاهرة الباب المفتوح في لحظات متفاوتة لايربطها نمط، وفي كل مرة ينفتح الباب تشلني المفاجأة فلا أبلغ رسالتي وأعود أتخبط بين تكذيب الظاهرة وتصديقها أبحث عن وسيلة ما لإيصال رسالتي لمن يهمه

الأمر. ولأن ليالي السجن طويلة (تبدأ من الخامسة بعد الظهر وتنتهى في الخامسة صباحاً) ، ولأن مشكلة إبلاغ الرسالة تصبح يوماً بعد يوم أكثر إلحاحاً وقد تقطعت الصلات بينك وبين العالم الخارجي، قلت لنفسي إن كان باب الزنزانة ينفتح فلابد من وجود نمط ما محدد ينفتح له الباب، وماعليَّ إلا أن أجد هذا لنمط ليفتح الباب بإرادتي وأملي الرسالة.

ويبدو أني كنت مازلت متشككة في قدراتي وفي حقي في الباب المفتوح، إذ ألجمتني المفاجأة، فلم أعِ النمط والباب ينفتح هذه المرة بإرادتي. شلّني ماتوهمت لحظة أنه معجزة لاحقّ لي فيها فأقعدني عن تبيّن النمط وبالتالي عن إبلاغ رسالتي. وليلتها لعنت سنسفيل جدودي والباب ينغلق وقررت بيني وبين نفسي أني لا أصلح لشيء على الإطلاق(لم أكن أدري ليلتها أن الباب لاينفتح أبدا لمن لايصلح لشيء.)

وفي صبيحة الليلة التي قررت فيها أني لاأصلح لشيء لمحت زميلي المتهم بذات تهمتي كما ألمحه كل يوم في طابور الصباح تحت الحراسة المشددة. كان هو في أول الطابور الذي يتحرك على شكل دائرة في حوش السجن الضيق وأنا في المؤخرة كالعادة(وفقا لمقتضيات الأمن التي تقضي بألانتبادل الحديث) ، وبدلاً من أن أتطلع كما أتطلع كل يوم إلى الثواني التي أواجه فيها زميلي ومؤخرة الطابور تلتقي مع المقدمة وددت لو استطعت الهرب محتّمياً بزنزانتي. وحين اكتملت الدائرة للمرة الأولى مس زميلي ذراعي مشجعاً مساً خفيفاً لم يلحظه السجان، وفي المرة قبل الأخيرة من مرات اكتمال الدائرة همس زميلي متسائلاً:

- هل أنت بخير؟

وتجاوزته دون أن أرد على تساؤله، كان الرد يتوقف على قدرتي من عدمها على تبين النمط وفتح الباب عن طريق هذا النمط، وحين التقت المؤخرة بالمقدمة للمرة الأخيرة تشبثت بذراع زميلي في جنون متجاوزاً لكل محظورات السجن وأنا أسأله:

- هل....؟

ولم أكمل، لم أعد بحاجة إلى استكمال السؤال إذ إن رد فعل الألم الذي خلفته خيزرانة السجان في عمودي الفقري جعلني أتبين النمط فجأة، وحررني من الحاجة إلى الاستفسار والاستشارة. وصحت وأنا أعود إلى الزنزانة حريصاً على أن يصل صوتي إلى زميلي:

- نعم أنا بخير.

وفي نفس الليلة انفتح باب الزنزانة حين أردت له أن ينفتح وأمليت رسالتي: إلى من يعنيه الأمر. أديت مهمتي بنجاح. عبد الله بخير. وجاءني الرد وباب الزنزانة مازال مفتوحاً: إلى الزميل م، زنزانة ٣ عنبر ٧، سجن مصر. نحن على ثقة أنك الآن بخير.

في حومة إملاء الرسالة وتفحص الرد الذي حيرني وأغاظني في نفس الوقت لم أحاول ليلتها أن أفهم لم ينفتح الباب لي أنا شخصياً، ولم لم يتبلور في عقلي مغزى انفتاح الباب إذ ذاك وهو المغزى الذي تبلور فيما بعد. استوعبتني تماما عملية استعادة كلمات الرد كلمة بعد كلمة عشرات المرات: نحن على ثقة أنك الآن بخير. ابحث عن رد لرسالتي عبثاً ولاردّ، ولاإشارة إلى المهمة التي قمت بها ولا إلى عبد الله في الرد. وكأن فحوى رسالتي لايتركز حول عبد الله! ما افترضت أنه خبر وخبر مهم لكل من يعنيه الأمر في طول مصر وعرضها ليس فيما يبدو بالخبر! بديهية فيما يبدو وكأن من المفروغ منه سلفاً أن يقوم أحد مابهذه المهمة وأن يكون عبد الله دائماً وأبداً بخير! والمهمة التي حرصت أن أنص على نجاحها في رسالتي ألا تستحق كلمة تقدير؟! ولامجرد إشارة؟!

تغيب ذكرى هذه المهمة في الرد، وكأنها مهمة يقوم بها كل إنسان كل يوم كلما مد كفه يمسح عرق العمل عن جبينه أو غمس لقمة خبزه في غموسه أو اقتلع الأشواك من قدميه أو أباد الديدان التي تلتهم حصاده أو قتل الحشرات التي تمتص دمه، أو قال كلمة حق ومضى!! لاشيء على

الإطلاق عن عبد الله والرحلة التي اجتزت خلالها الأهوال يتجاهلها الرد تماماً بينما يتركز حول الاطمئنان على حالتي، وكأن الرحلة قد استهدفت تحرري أنا شخصياً لا تحرر عبد الله، ومالم أفهمه إذ ذاك كان: لماذا ينصب الردّ على حالتي وكأنما أنا مركز الكون؟ هذا مالم أفهمه إلاّ لاحقاً حين أدركت أن كل فرد هو مركز الكون.

ولا أعلم على وجه التحقيق إن كان غيظي من الرد قد تبدد حين لمحت الباب مفتوحاً لم يزل أم أن تبدد غيظي هو الذي جعلني ألمح الباب مفتوحا، وأدركت فجأة حقيقة أني أملك أن أبقي الباب مفتوحاً ويحق لي أن أفعل طالما كنت بخير، وقفزت واقفة على قدمي.

ولفحتني لمسة هواء باردة متسللة من قضبان النافذة العارية عن الزجاج، وتوج جسدي بقشعريرة خفيفة ومحببة وتفجر حتى المسام بحيوية حررته من الوزن ومنحته القدرة على التحليق، وامتدت ذراعي تلتف حول جسدي، أحضن كياني أم كياناً وهمياً؟! وارتخت ذراعي لتمتد إلى الأمام مكورة إلى الأمام تمسك بكوب وهمي مليء حتى الحافة يهدد بالانسكاب، واتخذ جسدي التوازن المطلوب حتى لاينسكب الماء من الحافة وواتتني اللحظة الكونية النادرة التي يواتي فيها الإنسان أول مايواتيه الإدراك بأنه وقع في الحب.

ولم أعد أتساءل كما تساءلت تلك الليلة: في حب مَن وقعت؟ والاعتداد يسكنني والفخر، وسكينة تصالحني على ذاتي ترطب كياني، أستشعرها حية نابضة متوهجة في جسدي خفيفاً وفي ليونة أطرافي، سكينة تجعلني أوقن أن الرحلة كانت في المقام الأول رحلتي أنا.



الرجلُ الذي عرفَ تُهْمَتَه

(١)

لم يستطع عبد الله أن يركن إلى النوم لحظات كعادته وهو يقف في طابور الجمعية الاستهلاكية في انتظار زجاجة زيت شح من البيت. كان يفكر على غير عادته، وقد وجد في بيته في الليلة السابقة مايستوجب التفكير وسرعة التصرف.



فتح التليفزيون كما يفتحه كل ليلة، وبدلاً من المسلسل التليفزيوني العربي، طالعته أناشيد حماسية تزداد مع مرور الوقت هستيرية وتأكد له أن الليلة من ليالي النكد إياها التي لاينام فيها الإنسان على مشاكل الناس وقد انحلت بقدرة قادر، أو يظل معلقاً ما بين الأرض والسماء في انتظار أن تنحل العقدة في الحلقة القادمة وتتزوج البنت وقد سقط عريس الغفلة من السماء، ويتأهل الولد وقد واتاه الله بمشروع تجاري بديلاً عن الوظيفة الحكومية، مشروع يبدأ من لاشيء وينتهي بالمليون جنيه ويستقيم المعوج، وينتصر الخير، ويغتني الفقير، وينقلب شر منقلب المفسد والمرتشي وسارق أقوات الناس من الجمعيات الاستهلاكية، وتاجر العملة وصاحب العمارات المغشوسة، ويبوء في آخر المسلسل بالندم، وبقيود الشرطة الحديدية ترصع مرفقيه.

ولما تأكد لعبد الله أن الليلة لاتحمل أيا من هذه الغرائب، ولاتعد حتى بشيء منها، طالب بقلب محطة التليفزيون لعل وعسى. واستغرب والبنت تحتج على هذه المطالبة والولد، قالت مسحوبة اللسان، ولايعرف حتى اللحظة إن كانت تجدّ أم تهزل، والأرجح على ضوء تطورات الموقف أنها كانت تهزل، أن اليوم الخامس من سبتمبر ١٩٨١ والمفروض أن في البلد ثورة، ومن

ثم يتأتى أن تستمع إلى رئيس الجمهورية وهو يعلن الثورة على شاشة التليفزيون. وتغلب عبد الله على انزعاجه وقد عاد لتوه من الخارج وكل شيء هادىء يجري على مايجري عليه، أو يقف عندما يقف عنده، وأدرج الثورة المزعومة في إطار ثورات الأمن الغذائي البيضاء والخضراء والصفراء، الإدارية والزراعية والسياسية التي تحدث عادة في غفلة من الناس، وتحول أحوالهم عادة إلى الأسوأ. وأدرج ما أضافه الولد عن الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية في إطار مالايعنيه ولايعني أهل بيته، وأصر على قلب محطة التليفزيون.

ومن جميع القنوات طالعته صورة رئيس الجمهورية يقرر أنه لن يرحم، ويلتزم الصمت المريب ما بين الحين والحين، متعجباً، وقد انسحبت رقبته إلى الوراء وجحظت عيناه إلى الأمام تطق شراراً يهدد شاشة التليفزيون بالانفجار.

ولما استحال قلب محطة التليفزيون، كاد يطالب بقفل التليفزيون والراديو قفلاً شاملاً مانعاً، وهو يلحظ أبيه الخرف يقظاً على غير العادة في هذه الساعة من الليل، مستمراً على غير العادة أمام شاشة التلفزيون ينتظر قيام الثورة. ولوفعل لأراح واستراح ولكنه لم يفعل. عزّت على فهمه الكثير من العبارات والإشارات التي استخدمها رئيس الجمهورية وهو يعدد عدد المتحفظ عليهم، وعدد من ينتوي التحفظ عليهم إن لم تعتبر البقية الباقية وقد قطع الرؤوس وبقيت الأذناب. أراد أن يفهم، وليته ماأراد، علاقة الخطاب بالثورة وعلاقة التحفظ في مكان أمين بالسجن، وعلاقة الديمقراطية بالأنياب وانعدام الرحمة. ولم يشأ أن يفصح عن اهتمامه، كان مازال في وعيه في تلك المرحلة، وتمهل قفل جهاز التليفزيون ليفهّم. وليته لم يتمهّل. لم يكن أباه الخرف قد بدأ بعد في تصريف الضمائر ناسباً تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية إلى الخلق أجمعين بداية بالأنا ومروراً بكل الضمائر، ولا كان الولد والبنت قد أبديا علامات الاستخفاف برئيس الجمهورية، ولو فعلا في هذه المرحلة المبكرة من الخطاب لما تمهل ليفهم، ولحطم جهاز التليفزيون والراديو

أيضاً إن لزم الأمر.

ولكن الأمر أفلت من يده تماماً حين بدأ رئيس الجمهورية في طرح فوازيره السياسية، مشيراً كل مرة دون تصريح لشخصية مهمة من الشخصيات التي ألقاها في السجن وطالباً من المستمع التعرف على اسم الشخصية. ما إن تحدث رئيس الجمهورية عن لويس السادس عشر الذي يزيد أن يرجع بالتاريخ إلى الوراء حتى اختلت نسب الأشياء تماماً والسياسة تصبح فزورة والفزورة سياسة والجلسة تتحول إلى صهبة. وكالمدمن انسجم تماماً واندمج وولعه بالفوازير ينسيه كل المحاذير.

كم بلغ عدد فوازير رئيس الجمهورية؟ ثلاث أو أربع؟ إذا أدرجنا الرجل المرمي في السجن كما الكلب تصبح أربعاً. وفي كل مرة تهيأ للتعرف على الاسم المطلوب ولم يتعرف، ربما لأن رئيس الجمهورية لايعيد رواية الفزورة مرتين كالمعتاد، ولايقول كما تقول المذيعة «نقول كمان»، وربما لأن رئيس الجمهورية كان غاضباً غضباً يعصف بالمتكلم والمستمع معاً ولايتيح روقان البال اللازم لطرح الفوازير ولحل الفوازير، وربما، وهذا هو الأرجح، لأن حل فوازير رئيس الجمهوريه يتطلب معرفة، لايتمتع هو بها، بأحداث السياسة اليومية. وكان أن استعان بالولد والبنت في حل الفوازير وليته مااستعان.

أي غيبوبة تلك التي استولت عليه في الفترة مابين طرح الفوازير وحلها فلم يتوقف لينتهي أبيه الخرف عن تصريف الضمائر ناسباً للخلق أجمعين تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية؟! ولاتوقف ليتساءل، كما يتساءل الآن، من أين واتت الولد والبنت هذه المعلومات السياسية الدقيقة وهو الذي حرّم على أهل بيته السياسة تحريم المنكر؟ وحين أفاق من غيبوبته كان الأوان قد فات. نعم لم يفق من غيبوبته إلا على المشهد الذي أعقب الخطاب على أنغام الموسيقى الحماسية، وفي بيته وأمام عينيه!

وكان من الطبيعي أن تذهب صيحاته هباء وهو يحاول عبثاً وقف المهزلة التي أعقبت الخطاب وصغار الأولاد والكبار ينتظمون في طابور يلف ويدور ويقول توت، ولوثة تصريف الضمائر ناسبة تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية إلى الجميع تنتقل من الجد إلى الحفيدة والحفيد تكاد تصل إلى الجيران، لولاغلبة الموسيقى الحماسية وصيحة توت توت تغطي على كل الضمائر.



وطأت امرأة قدم عبد الله وهو يقف في طابور الجمعية، وكاد يطالبها بالاعتذار.. وأقر بمسؤوليته عما حدث. فلو لم ينزلق إلى الرغبة في حل الفوازير التي طرحها رئيس الجمهورية لما فقد سيطرته كأب ولاستطاع أن يلجم الكل ويحول دون المهزلة التي أعقبت الخطاب. وحمد الله أن صيحة توت توت غطت على ماعداها، فلم يلتقط الجيران سواها. وأغمض عينيه يستبعد المشهد. وتساءل من أين ومتى وكيف جمع الولد والبنت هذا القدر من المعلومات السياسية، وقد حظر عليهما السياسة وكيف ومتى اتّخذا دون أن يدري موقف الرفض لما يجري؟ ولعن أباه الذي تلطم في السجون والمعتقلات في العصر الملكي والجمهوري على السواء ولم يبرأ من السياسة، وعاد واستسمح الله وقد لعن أباه فالرجل لايمكن أن يكون مسؤولاً عما حدث وقد أصيب نتيجة لتصلّب الشرايين بالخرَف المبكر.

من أربع سنين والرجل يسأل من أنا؟ وإن كان خرفه عجيباً يدخل فيه ويخرج منه بسهولة حتى يخيل للإنسان أنه يصطنع الخرف عندما يريد. يعرف الكل ولايخطىء أحدا، يسأل من أنا ويكون هو كل واحد يشاء من أحمد عرابي إلى عبد الناصر. يغط في النوم ويصحو إنساناً جديداً، يهتم بأدق الأمور ويغفل عن أبسط الحقائق وهو يسأل من أنا، يمنح الولد والبنت الحب

ويتلقاه، يهتم بأدق أمورهما الصغيرة ويهتمان، يلعب مع أمهما لعبه القط والفأر، تحبه وتخافه. ويغلق دونه هو الباب ويغط في النوم بمجرد أن يعود إلى البيت، ولكن بعد أن يقول له:

- ألم أقل لك؟!

ولايعرف هو المقصود على وجه التحديد. لايهتم، فقد قال أبوه الكثير طوال العمر وهو يخرج من السجون إلى المعتقلات. حلم بالأمس بالتغيير إلى الأفضل فبماذا يحلم الآن وهو لايكف يسأل مَن أنا؟ ضيّع العمر ليغير أحوال الناس ويبدلها إلى الأفضل، فهل يعرف أن كيلو اللحمة بسبعة جنيهات، وأن غموسه من الباذنجان المقلي يكلف ابنه وقفة ساعات في طابور الجمعية في انتظار زجاجة الزيت؟

وحرك عبد الله رقبته حركة دائرية يميناً ويساراً يسري الدم في كتفين أرهقهما تدافع الناس في الطابور وقالت زوجته وهي ممددة إلى جانبه في السرير:

- أخشى أن يصاب الولد بالجنون. وأضافت مفسرة:

- علاقة الولد بجده غريبة.

وطار النوم من عينيه وهي تشرح وتُفيض والشاب الصارم المتجهم المتمرد في الرابعة والعشرين ينقلب حاله ويتحول إلى طفل كلما انفرد بجده في البيت، يثرثر يضحك يلعب يدمع ويصرخ في نفس اللحظة، يتهامس وجده بعبارات لاتسمعها، يحلان فوازير لاتفهمها، يلعبان لعبة «هوجة عرابي» وألعاباً أخرى متعددة لاتعرفها، والولد باختصار يصاب بالجنون كلما انفرد بجده. وليلتها طمأن هو زوجته:

- الولد مأزوم يسري عن نفسه.

- بهذه الطريقة المجنونة؟!

وصعب عليه ليلتها أن يصف لزوجته عالم أبيه السحري الذي يُسقِط

كل قيد، ويطلق الخيال محرراً من كل سد واكتفى بالقول:

– لاتقلقي الولد ينطلق على طبيعته مع جدة. وتساءلت زوجته فيما يشبه الاستنكار:

– وإذا كانت هذه طبيعة الولد فلماذا لاينطلق على طبيعته معك وأنت أبوه؟ وسقطت الشبكة الخاوية التي يحمل فيها عبد الله مشترواته على الأرض، واقتضاه استعادتها دون أن يخل بنظام الطابور جهداً كبيراً. وتعذر عليه أن يزن انحناءته بحيث لايصطدم بمن خلفه وأمامه، ورفع الشبكة ببطء شديد بطرف قدمه حتى قاربت ذراعه الممدودة إلى أسفل بعد جهد، وأدرك أن أباه لايمكن أن يكون مصدر المعلومات السياسية التي تسابق الولد والبنت في استعراضها بالأمس أثناء خطاب رئيس الجمهورية، وتساءل إن كان هو مصدر موقفهما الرافض لمجريات الأمور وهما يدوران في فلكه يدخلان عالمه ويخرجان منه في يسر يستعصي على بقية الناس؟ واستشعر القلق وهو يتساءل هل أورث الجد الأحفاد ماعجز أن يورثه للابن؟! وتبدد قلقه وهو يستبعد الاحتمال، فماذا بقى الآن من الجد ليورث وقد سقطت الفواصل واختلطت عليه الأزمنة؟!

وكبس الطابور على عبد الله من الخلف، وحال بينه وبين الوقوع ظهر امرأة تتقدمه استدارت تنفي غيبة الأخلاق والزمن الغدار الذي جعلها، وهي السيدة المحترمة، مطمعاً سهلاً للوحوش من الرجال، وأدرك صعوبة المواجهة بعد أن صمتت المرأة وعاود الطابور الانتظام... البنت في الخامسة والعشرين تبدد أملها في الزواج أو كاد، تعمل في التدريس ليل نهار من سنوات لتعاون في مصاريف البيت، والولد في الرابعة والعشرين مر كالحنظل توقف عن انتظار خطاب القوى بعد انقضاء ثلاث سنوات على تخرجه من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بدرجة الامتياز. البنت توجعه وهي تصدمه بأغرب الأقوال يفهمها حيناً ولايفهمها معظم الأحيان.. حين تحجبت فجأة وهي لم تزل في السنة الثالثة من دراستها الجامعية قالت ساخرة:

- هذا عصر الانفتاح ياأبي يتعين علينا أن نتحصن ضد الغواية.

واستقرت عيناها على أحذية إخوتها الصغار مقوّرة بالمقص من الأمام لتفسح المجال لأصابع أقدام لاتكف عن النمو شهراً بعد شهر وقالت:

- لاأستطيع أن أجاري زميلاتي في تغيير الثياب والسيارات. وأضافت ضاحكة تخاطب أمها:

- قد يستجيب الله لدعائك ياأمي ويرزقني بلبن العصفورة.

وعنت بلبن العصفورة عريساً يملك شقة وموارد كافية لفتح بيت. وحين طالبها أمس الأول أن تدّخر جزءاً من دخلها لتجهز به نفسها للزواج ولاتصرف كل مدخراتها علي إخوتها الصغار. قالت، ولم يفهم:

- أحذية اليوم ورق ياأبي، لم تعد تحتمل المقص.

ثم هامسة دون أن توجه الخطاب إلي أحد:

- لم يعد لنا سوى احترام الذات، فلنتمسك به ما أمكن.

.ليلتها سأل زوجته في ظلمة الليل إن كانت البنت تحب، أو أحبت في يوم من الأيام كبقية البنات، وعنف زوجته حين اعتصمت بمكر النساء وأنكرت، وردّ بالإيجاب حين تساءلت زوجته فى استنكار إن كان يريد للبنت أن تحب وتعشق مطيحاً بكل التقاليد والعادات، ودهشته من نفسه لاتقل عن دهشة زوجته التي ألجمتها إجابته متألماً للسؤال بنعم. وليلتها سأل زوجته وهو يدرك متألماً أنه لايعرف شيئاً على الإطلاق عن أولاده:

- والولد؟

- يشيح بوجهه كلما رأى صبية حلوة.

وتساءل هو مستفسرا:

- غاضباً؟

ونظرت إليه زوجته مستغربة:

- ومما يغضب؟ الكل يولع له أصابعه العشرة كالشمعة، وهو

كالطاووس يفرد ريشه ولايعجبه العجيب. وتساءلت بعد لحظة في استنكار:
- أتريد له أن يحب وهو بلاعمل؟
وتساءل إن لم يكن وزوجته قد أحبا في زمانهما وأولته ظهرها تقول:
- الحب مكلف هذه الأيام والبنت مكسورة الجناح والولد، بماذا يحبان ياحسره؟ وأفاق ويد تلكزه في كتفه وأصوات تصيح:
- ادفع ياأخينا.. خلصنا.
ووجد عبد الله نفسه يقف أمام البائع متهماً بتعطيل مصالح الناس وقرر وقد فاز بزجاجة الزيت أخيراً أن من حقه على نفسه أن ينام بعد أن نال في يومه من المواجهة مايكفي ويزيد، وأن يؤجل مواجهة الولد والبنت إلى حين.
ولم يدر لحظتها أن القرار قد خرج من يده في غيابه، وأن أكثر من مواجهة على أكثر من مستوى في انتظاره.

(٢)

جاءوا في طلبه في الساعة التاسعة من مساء السادس من سبتمبر ١٩٨١ وهوغائب في طابور الجمعية، وطلبوه بالاسم دون أن يعرفوا له سناً ولا وصفاً ولاصورة وكان الجد نائماً في سريره، والابنة المدرسة بمدرسة ثانوية حكومية تشرف على مذاكرة إخوتها الصبية والبنات، والابن ينسخ على الآلة الكاتبة مذكرات يبيعها لطلبة كلية السياسة والاقتصاد، والأم تبدل ياقة قميص على آلة خياطة قديمة.
وتأكد للابن والابنة، وقد تبينا أن الأب هو المطلوب أن في الأمر التباساً، والعنوان الوارد بقرار التحفظ ليس بدليل، فعناوين المساكن الشعبية مازالت تستعصي حتى على رجال البريد، وأسماء سكانها تكاد تتطابق. وقد يكون المتهم المطلوب في الشقة الأعلى أو الأسفل على السواء، أو في عمارة الإسكان الشعبية المجاورة أو تلك التي تليها. وعلى هذا الأساس تعامل الابن

والابنة مع الحدث في خفة طمأنت الأم وسرت إلى بقية الأولاد.

وحين تطورت الأمور ورأت الابنة اسم أبيها الثلاثي مطوقاً بدائرة من الحبر الأحمر في القرار الجمهورى بالتحفظ، أشاحت بوجهها حتى لايرى الضابط الدمعة تفر من عينيها، وقررت أن مامن أحد في هذه البلد بسالم، وأن من الضروري التعايش مع هذه الحقيقة والإبقاء ما أمكن على احترام الذات. وتوقف الابن عند اسم أبيه مطوقاً بالحبر الأحمر، وقرر أول ماقرر أن النحس حليف أسرته من قديم الزمان، ثم لم يعد بقادر على أن يقرر شيئاً وهو يتمثل نفسه في أبيه الذي يفر من السياسة كالجرب وفي جده الذي يتنفس السياسة كما الهواء. وأراد أن يكذب قائمة التحفظ وأراد أن يصدقها، أن يرتمي على الأرض منتحباً أن يهرب أن يقف على مائدة الطعام في الصالة ويعترف علناً بأنه طائر بلاجناحين. وتمنى أن يهرب من واقع يسد المنافذ حتى الاختناق وطالبته نظرة أخته بالتجاوز وتبين مدى عجزه، وتأتي ليحتفظ بتوازنه أن يصدق، ولو لحظياً، أن أباه قادر على مالم يقدر هو عليه... ورأى جده يناضل رجال الشرطة حتى حافة الموت وصدق.

فتح أحد الصغار الباب لرجال الشرطة، ولم يشعر أهل البيت بوجودهم حتى زحم الشقة جنود من الأمن المركزي والشرطة والرديف والمخبرين في كثرة الجراد، ولم يتبين أهل البيت لهذه القوة قائداً حتى واتاهم صوت الجد منبهاً إلى الخطر:

– تجريدة.

صاح الجد ومدفع رشاش موجه إليه وخمسة جنود يطوقونه في السرير، وضابط شاب يرقبهم مرتبكاً وهو لايعرف بعد، قواعد اللعبة التي يلعبها الجد والحفيد. انتظر الجد في السرير، كما ينبغي له أن ينتظر، مستسلماً للتطويق، كما ينبغي له أن يفعل حتى ينتهي الطفل في ملابس الضابط من قراءة أمر النيابة بإلقاء القبض عليه:

– أنت مطلوب بمقتضى القرار الجمهوري بالتحفظ الصادر في خمسة

سبتمبر سنة ١٩٨١.

وصعق الضابط الشاب وهو يرقب الرجل العجوز يزيح كما يزيح الذباب خمسة من عتاة الجنود، ويقفز بجلبابه الأبيض كما المنطاد يستبعد المدفع الرشاش كما لو كان مدفع حلاوة ويستقر وسط الحجرة مطالباً، وفقاً لقواعد اللعبة، بأمر النيابة العمومية بالقبض عليه وإلا فلا.

وكان الضابط الشاب قد تأهب لكل احتمالات الموقف وهو يخرج في مهمة هي الأولى من نوعها بالنسبة إليه، ولكنه لم يتأهب بحال لرجل يزيح المدفع الرشاش كما لو كان لعبة أطفال، ويواصل القفز كما المنطاد.
واستحضر الضابط في ذهنه التعليمات الصادرة بشأن تنفيذ القرار الجمهوري بالتحفظ عسى أن يكون قد نسى شيئاً يتصل بموضوع إذن النيابة هذا عبثاً، ومن باب الاحتياط استحضر مايماثلها من معلومات في مناهج كلية الشرطة التي تخرج منها لتوه، واكتشف لدهشته أن إذن النيابة ضروري في عملية إلقاء القبض على أي متهم. ولعن من أوقعه في هذه الورطة التي لايعرف لها مخرجاً. وفتح الله عليه وذكر فجأة التعليمات التي غابت عنه:

– هذا قرار جمهوري سيادي لايحتاج لإذن من النيابة.

وما كاد الضابط يتنهد منتصراً لأنه أصاب كبد الحقيقة، حتى وجد الرجل العجوز يصيح وهو يقفز من جديد كما المنطاد:

– ارفعوا أيديكم عن سعد زغلول.

وأفاق الضابط على صوت شاب يماثله في العمر يشير إلى الرجل ويقول:

– هذا هو جدي.

ويتقدم منه يشق صفوف الجنود التي حرم شقها، والمدفع الرشاش ينحسر عن الرجل العجوز ينعي عهد الظلم والطغيان، ويطالب بحضور وزير الحقانية شخصياً كشرط للاستسلام والشاب يواجه الضابط الآن وهو يكرر:

– هذا هو جدي. وأجاب الضابط في حدة:

– جدك مطلوب.

وتأكد للضابط أن الرجل العجوز يدعي الجنون، وأنه مسؤول عن الفتنة الطائفية، والإخلال بالوحدة الوطنية، وكل البلاوي التي حلت به شخصياً وبالبلد. فها هو الرجل يعلن العصيان ويضع شروطاً للاستسلام مطالباً بحضور وزير الحقانية شخصياً، وهاهم جنوده يتراجعون خوفاً من التهديد، ينكسون أسلحتهم ويسمحون لكل من هب ودب بدخول الحجرة. واليوم ولاشك يوم الخيانات، فها هو الشاب يشككه في منطقه ويقول:

– وفقا للاسم الذي ذكره أبي هو المطلوب لاجدي. ولعن الضابط في سره مَن أوكلوا له مهمة حاول الاعتذار عنها فلم يجد من يعتذر له، وقد تفرق في مهام مماثلة كافة رؤسائه وزملائه من مختلف الفصائل في المدن والقرى والنجوع والدساكر.

– أطفىء النور ماشئت ياماهر، فإن نور الحق ظاهر، لقد تآمرت أنت وأخوك والسرايا على قتلي... .

قال الرجل العجوز وهو يتنغم وكأنما يقف خطيباً على منبر، ووجد الضابط نفسه يسأل مبهوتاً:

– ومَن هو الآن؟

وأجاب الشاب في جدية أفقدت الضابط الصواب:

– مصطفى النحاس يخاطب أحمد ماهر رئيس حكومة الأقلية في البرلمان. وتأكد للضابط أن العجوز ليس بالمطلوب، وتأمل لحظة الشاب الذي يعرف من أحداث التاريخ مالاينبغي أن يعرف، ومال إلى الاعتقاد أنه هو المطلوب.

– ولماذا لاتكون أنت المطلوب؟

– لأني الابن لا الأب، وانقض عليه الضابط قائلا:

– وما أدراني أنك لست الأب ؟

وما كاد الضابط يقولها حتى أطبق الجنود على الشاب مطوقين الرجل الوحيد المتبقي على أساس أنه المطلوب. وخشي الضابط أن يتمخض المتهم الجديد عن جمال عبد الناصر يطالب بحضور أنور السادات شخصياً كشرط للاستسلام، ولكن الرجل الوحيد المتبقي لم يتقمص شخصية أحد، ولاحاول حتى مقاومة «رجال الأمن»، أبرز بطاقته الشخصية وبطاقة جده، وبمضاهاة البطاقتين بالاسم الوارد بأمر إلقاء القبض اتّضح الخطأ. وأمر الضابط فأطلق الجنود سراح الابن واحتج فيما يشبه الاعتذار بتطابق أسماء الثلاثة، الجد والأب والابن.

وتأكد الضابط أن المتهم المطلوب قد هرب، ولكي يكتسب وقتاً يتدبر فيه خطوته التالية أصدر أمراً إلى رجاله بتفتيش البيت، وأسعفته المهلة فتواردت على ذهنه العبارات التي يتعين قولها في هذا المجال. أعلن أنه سيجد المتهم حياً أو ميتاً وأقسم على ذلك بأغلظ الأيمان، وتساءل بينه وبين نفسه وشابة محجبة تتقدم منه: كيف يتأتى له أن يجد متهماً لايعرف له أحد في الإدارة وصفاً ولا سناً؟!

– عن أي متهم تبحثون ؟

قالت الشابة المحجبة في سخرية وهي تواجه الضابط الآن، ولوح بأمر التحفظ وهو يقاوم الرغبة في صفعها، وعاودت السؤال في لجاجة، كأنه لم يلوح بالأمر في وجهها واكتشف أنه نسي الاسم فتطلع إلى أمر التحفظ يفحمها.

– المدعو...

ولم يكمل... خطف الجد الورقة من يده منقضاً كما الصقر وكورها وألقاها في فمه لحظة خطفها، وعوّل الضابط على قوة الجنود تطرح العجوز أرضاً تنتزع الورقة من فمه قسراً وضاع والجد يبتلع المستند الرسمي رغم كل محاولات الجنود الذين طرحوه أرضاً. وصفق الأطفال من كل الأعمار،

وكادت الأم تزغرد لولم ينبهها الابن أن الموقف لايحتمل بحال زغرودة فبكت بلاصوت، وازدادت الابنة لجاجة وهي تتحدى الضابط الآن.

– عن أي متهم تبحثون؟

وانحنى الابن على جده يهدهده ويمسح على جراحه، وانبعث المطروح أرضاً من الموت إلى الحياة يصيح:

– لماذا تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

وفسر الابن قول الجد دون أن يطلب أحد منه تفسيرا:

– أحمد عرابي مخاطباً الخديوي توفيق الذي باع البلد للانجليز.

وتأكد للضابط أن الابن يهين رئيس الجمهورية شخصياً بتهمة بيع البلد، ولم تخدعه بحال التورية التي تستهدف تغطية الإهانة، فما الخديوي توفيق هو الخديوي توفيق، وما الانجليز هم الانجليز. وانتوى أن يوجه للابن تهمة إهانة رئيس الجمهورية المؤمن محمد أنور السادات، وأن يحرر له محضراً مدعماً بشهادة الشهود، ويعود به إلى مديرية الأمن عوضاً عن أبيه، وتراجع الضابط عما انتوى في اللحظة الأخيرة وهو يسمع رئيسه يقول مستنكرا:

– ألا تعرف حتى اسم المتهم المطلوب؟

وأدرك أن الموت أهون من العودة إلى مديرية الأمن دون اسم المتهم المطلوب. وخطر بباله أن القرار الجمهوري الذي يضم أسماء كافة المتهمين، وفي حقيبته صورة منه، ينطوي على الخلاص من مأزقه. ولن يكون من الصعب إيجاد اسم المتهم الثلاثي في قائمة التحفظ وهو مشتق من الاسم الذي يحمله الجد والابن معاً وتأتى على الضابط وقد وجد خلاصه في القرار الجمهوري، أن يتخذ الإجراءات الأمنية الواجبة قبل أن يفتح الحقيبة. وأمر فأوثقوا الجد في سريره مكمماً وحبسوا الأم وصغار الأولاد صبية وبنات في حجرة مجاورة مع توصية بضرب من يصدر صوتاً، استحساناً كان او استهجانا. وأشار فنقلوا البقية الباقية ممن لم يحبسوا أو يكمموا إلى الصالة تحت

حراسة مشددة.

وفتح الضابط الحقيبة السمسونيت، وانكب على الأمر الجمهوري، وتبين لدهشته أن القائمة تحتوي على أكثر من ألف وخمسمائة اسم، وكاد يصرخ: ياخبر أسود وهو يتعرف على أكثر من اسم معروف، وأكثر من شاغل لمنصب مرموق من الأقباط والمسلمين، اليمين والوسط واليسار حتى ممن حسبهم أمواتا، واستوعبته مصيبه الشخصية فلم يصرخ. وقدر أن إيجاد اسم المتهم المطلوب سيستغرق وقتاً طويلاً وقائمة التحفظ تفتقر إلى أي نوع من التبويب والتصنيف بحيث يستحيل القطع بهذا الاسم الذي يجمع العديد من الناس، استند إلى طرف المائدة حتى لايقع وهو يكشف أن اسم عبد الله يرد بين اسم عبد الله واسم عبد الله واستعاض الله في شقاء أمه على تعليمه الذي ذهب هدرا. واستجمع أنفاسه وهو يجد اسم عبد الله المطلوب مطوقاً بدائرة من الحبر الأحمر في الصفحة السادسة من القرار الجمهوري، وتوجه بالحمد إلى غرفة العمليات التي لاتغفل شيئاً، واستعاد الثقة في الجهاز الذي ينتمي إليه وفي نفسه وهو يصيح منتصراً:

– غرفة العمليات لاتخطىء.

وجاء دوره ليسخر، وتقدم إلى الصالة حيث يجلس الابن والابنة، ولوّح بقرار التحفظ في انتصار، وسأل الابن عبر الجدار البشري من الحراس الذي فصل فيما بينهما.

– أليس هذا اسم أبيك؟

وقال الابن:

– لا أب لي.

ونظرته معلقة بغرفة جده المكمم، وأضاف وربتة أخته تعيده إلى الواقع:

– نحن جيل بلا آباء.

لم يعد بالضابط طاقة على احتمال المزيد من الهزل وادعاء الجنون.

وأمر فأفسح الجدار البشري من الحراس الطريق، ودس الأمر الجمهوري تحت أنف الابنة ثم الابن واسم الأب مطوقاً بدائرة حمراء، وأشاحت الابنة بوجهها بعيداً وهي تتمتم:

– مامن أحد بسالم في هذه البلد.

وفرّت دمعة من عينيها ولم يقل الابن شيئاً، ارتجف من رأسه إلى قدميه وتقلص وجهه بما يشبه الضحك وبما يشبه البكاء وإن لم يكن ضحكاً ولابكاء ومضى كالطاووس إلى حجرة جده المكمم.

وتنهد الضابط ارتياحاً وهو ينقل اسم الأب الثلاثي في ورقة ويُعيد قرار رئيس الجمهورية إلى الحقيبة السمسونيت. وخطر في باله أن من الضروري أن يعود من مهمته الأولى بأكثر مما جاء، فطلب صورة للمدعو. ولما كان المطلب مطلباً عسيراً على عائلة لاتحتفل بالمناسبات ولاتلتقط صورا للذكريات في أعياد الميلاد والرحلات والحفلات، استولى الضابط آسفاً على صورة الزفاف التي تطل على الحاضرين من إطار مذهّب، ولما احتجّت الأم بأنها غير مطلوبة، وناحت على تلطّمها في أقسام البوليس وفضيحتها بين من يسوى ولايسوى، اضطر الضابط آسفاً إلى بتر الصورة إلى قسمين بالعدل والقسطاس، ومنح الزوجة القسم الخاص بها بالإضافة إلى الإطار المذهب والزجاج.

وقال الضابط قبل أن ينصرف ما تقضي التعليمات بقوله قبل الانصراف في حالة عدم وجود المتهم المطلوب. وجّه إلى الأسرة تهمة التستر على متهم خطير هارب من يد العدالة وخيّر الأسرة بين تسليم الجاني أو استصدار أمر بإلقاء القبض عليها، صغيرها قبل كبيرها، بالتهمة المذكورة أعلاه. وأمهل الأسرة ثلاث ساعات لتسليم المتهم.

وفوجىء الضابط بالجيران وجيران الجيران يزحمون السلم وهو ينزل برجاله، وبالجد وقد انحل وثاقه يقف على عتبة السلم يصيح:

– اخرجوا من بلادنا أيها المستعمرون. عليكم اللعنة.

(٣)

لحظة عاد عبد الله من طابور الجمعية وجد داره على حال غير الحال، أباه منتصباً في وسط الصالة كالتمثال مثخنا بالجراح مغطى بأوراق البلاستر البيضاء، وزوجته تلوّح بورقة كما العلم تردد كلمات لا تبين كهتافات صبية المدارس يستقبلون رئيس الجمهورية وكبار الزوار من الأجانب، وابنه محموماً تتنازع وجهه الابتسامات والدموع وقد فقد السيطرة على عضلات وجهه، وبنته شفتها في لون طرحتها البيضاء، تميل عليه تقول شيئاً يضيع في ضجة يحدثها الصغار من الأولاد والبنات يدورون حوله يتصايحون كصبية زمان وهم يحرقون أقفاص الجريد فجر يوم شم النسيم.

وأفلتت زجاجة الزيت من يد عبد الله وهو يفهم أخيراً ماتحكيه البنت، واصطدمت بحذائه أولاً ثم ببلاط الصالة محدثة صوتاً معدنياً حاداً وهي تنفجر. ولا أحد على الإطلاق يهتم بالزيت المسكوب. ولا أحد يجمع حتى هشيم الزجاج. ولما كاد عقله يشت وهو عاجز عن استيعاب ماحدث وتصديق مايقال، صرخ صرخة ألجمت الزوجة فسلّمته علّمها المبتور، وألقت بالعيال في الأركان مكومين، وأبقت أباه مصلوباً وسط الصالة وسبابته معلقة في الهواء.

فكرت واستبعدت إمكانية الهرب، وإن كانت الإمكانيه موجودة حتى الآن. واستبعد هو كلام البنت كهراء غير مفهوم وجلس محتمياً بمقعده يحدق في استغراب في البقية الباقية من صورة زفافه وأبوه لايكف يردد بصوت جهوري منتصر:

– عائدون... إلى السجن عائدون.

وابنه يؤكد لأخته في اعتداد أن الهرب لايليق بمن كان مثل أبيه. وإذ يلمح عبد الله يده مبتورة على طرحة الزفاف يدرك أنه في علم لاحلم، وألا مجال هناك للتشكيك في صحة ماقالته البنت وأكده الولد من صدور أمر

بإلقاء القبض عليه، لم يعد يعي مايجري من حوله وعياً كاملاً وقد واتاه الإدراك. انصرف اهتمامه إلى بقع زيت تلوّث سرواله وإلى يده مبتورة على طرحة زفاف.

ورأى عبد الله فيما يرى النائم ابنته تختفي وتعود بحقيبة صغيرة منتفخة يتدلى منها غطاء صوفي أبيض مرقّط ببقع بنية كما جلد النمر، ورصد بارتياح ألاوجود في بيته لمثل هذا الغِطاء الفخم ولابد وأنه يحلم وزوجته تستمطر اللعنات على ظالم، وأبوه يعّدد تهماً لا أول لها ولا آخر، يطالبه بالإقرار بتهمته ليتم تحديد موقفه القانوني. وهو منشغل بتأمل يده المبتورة وبقع الزيت تلوّث سرواله وكأن شيئا في الوجود لايعنيه سواهما.

وظل أبوه يكرر كما اللازمة:

- سمّموا الآبار وأهلكوا الزرع.

وتأكد له أنه يحلم حين فتح فمه لينبه أباه إلى خطورة سب الحكومة، وبقي فمه مفتوحاً دون أن يسعفه حلقه بالصرخة والآبار قد تسممت فعلاً والزرع قد هلك أبوه يقسم الآن أن أحداً من أهل بيته لايسرق قوت الشعب ولايمتص دماء الناس وفرَاغ اليدين يكذب الاتهام وبقع الزيت. وكما في الحلم كاد أبوه ينقض عليه مرتين ولم ينقض، قذفه كل مرة بسؤال تراجع حتى قبل أن يكتمل السؤال وعيناه تطوفان المكان بحثا عن حفيده الذي اختفى الآن تماماً من المشهد. متى وأين اختفى؟

- هل تعاملت مع الأعداء؟

قال أبوه هو يقذفه بالسؤال الأول، ينقض عليه وكلما آذن المشهد بالانقضاض تراجع بمثل ما انقض، وتكوم كما كومة القش وعيناه تبحثان عن حفيده، تستقران يائستين وهو يسأل بصوت متحير:

- من هم أعداء الدولة الآن؟

ويستعيد أبوه قسوته الهرقلية وهو يفلت من يد البنت تحاول تهدئته

وينقض عليه من جديد ولاينقض، يقول وسبابته مُشَرعة بالاتهام:

- هل أهنت دولة صديقة؟

ولايتكوم هذه المرة ككومة من القش، يظهر الولد فجأة على باب المطبخ، يرتجف وهو يحمل كمالم يحمل من قبل إناء كبيراً من البلاستيك ملِيئاً بسائل يخشى عليه أن ينسكب، يرفض كما لم يرفض طول عمره عرض أمه وأخته بالمساعدة في حمل الإناء وجده يعالجه بالسؤال:

- مَن هم أصدقاء الدولة الآن؟

والولد يشير إلى جده بالصبر ويسير تجاه أبيه يترك الإناء المليء بالماء الدافيءورغوة الصابون تحت قدميه ويعود يحمل جده ما بين يديه إلى مقعده، يدثره بغطائه الصوفي ويهمس في أذنه بشيء ما يجعله يصيح:

- ألم أقل لك؟

ويركن الجد إلى النوم ملتحفاً بغطائه الصوفي. وكما في الحلم رأى عبد الله الولد يترك جده خلفه ويتجه نحوه، يركع تحت قدميه، يخلع عنه حذاءه وجوربه، يلف سرواله إلى أعلى ساقيه حتى لايبتل، ويرخي قدميه في الماء الدافيء وكما في الحلم لم يشعر بيدي الولد وهي تمسح على ساقيه، ولم يفهم كلمات الولد تنهمر كالسيل، تبدأ هادئة وتتصاعد محمومة في صوت فرحٍ باك، منتصرٍ مهزوم، ولم يتأكد أنه في عِلم لاحلم إلا حين واتى الشعور ساقيه والإدراك عقله.

مسح الولد على ساقيه المرة بعد المرة يغسلهما بالماء الدافيء والصابون وهو يردد محموما:

- وزراء، أساتذة جامعات، مطارنة، وعاظ قساوسة، أئمة مساجد، عمال، فلاحون، طلبة.

وهو لا يستشعر شيئاً ولايفهم شيئاً، والولد كما في الحلم لايكف يردد:

— علماء چيولوچيا، اقتصاد، آداب، شريعة، دين، سياسة، طب، هندسة، صحافة.

وما أن واتى عبد الله الشعور والإدراك حتى حاول أن يسحب ساقيه من بين يدي الولد ومن الإناء وبدأت بينه وبين الولد معركة صامتة، وهو يحاول أن ينهي المشهد وبدا الولد تتشبثان بساقيه ونبرته تسارع وكلماته لاتكاد تبين وهو يعدد صفات المتحفظ عليهم:

— مسلمون وأقباط، علمانيون، حزبيون مستقلون، يسار، يمين، وسط مؤيدون، معارضون منشقون مناهضون. وفجأة وجد عبد الله نفسه يقلب الإناء في وجه الولد ويصيح من أعماقه:

— مظلوم ياعالم.

وراقب الولد ينتفض واقفاً مبللاً بالماء يترنح لحظة كالمطعون وسط الصالة، وينسحب إلى غرفة جده مغلقاً الباب دونه في طرقة مدوية وارتجف والبنت تربت على كتفه هامسة:

— نحن شهداء هذا العصر ياأبي فلتكن الشهادة اختياراً.

ولم تعد بعبد الله طاقة على احتمال هذا الهوس، ونحّى يد البنت في عنف عن كتفه، وأمر فمسحت زوجه الماء المسكوب ممتزجاً بالزيت في الصالة.



— وجد الضابط عبد الله في انتظاره على الباب لحظة عاد بعد غيبة ثلاث ساعات، ولم ير أيا من سكان البيت سوى الابنة المحجبة تملي على أبيها إملاء حقيبة يد تحتوي الملابس الضرورية للمعيشة في السجن وبعض

المأكولات وطمأنت البنت أباها قائلة:

- لاتشغل بالك. سنكون بخير.

وفتح عبد الله فمه ولم يقل شيئاً، وربّت ربتة خفيفة على شعر البنت ونزل في هدوء، وأخاف الهدوء المتوتر الذي ساد الشقة والعمارة الضابط بأكثر مما أخافه الشغب الذي شهده الحي مكتملاً قبل ساعات والرجل العجوز يصرخ:

- اخرجوا من بلادنا أيها المستعمرون... عليكم اللعنة.

وأخذت الضابط الشفقة بالرجل النحيل المرهَق يجلس محشوراً بينه وبين السائق في مقدمة عربة البوليس وهمّ أن يقول له شيئاً مشجعاً، وبدلاً من أن يفعل ارتجف خوفاً أن يكون قد أخطأ من جديد المتهم المطلوب والرجل يقول:

- هناك خطأ ما.

ووضع أمام الرجل أمر التحفظ وقال:

- أليس هذا اسمك وعنوانك؟

وأكد عبد الله أن الاسم اسمه والعنوان عنوانه، غير أنه ليس بالمتهم المطلوب. وارتخى جسد الضابط المشدود وفقد الاهتمام تماما والرجل يضيف:

- المسألة مجرد تشابه في الأسماء... أنا رجل أجري على رزق عيالي، ولاعلاقة لي إطلاقا بالسياسة.

وكاد الملازم يغفو حين أيقظه صوت الرجل يقول:

- هل تتكرم بمساعدتي بشرح الخطأ للمسؤولين؟

وأشار الضابط بسبابته إلى أعلى مُرجعاً الخطأ إلى مسؤول مجهول وغفا.

(٤)

انتظر عبد الله قرار الإفراج لحظة دخل السجن، ونسج مشهد الإفراج في مخيلته في الليلة الأولى بعد أن شبع من الطعام الذي حمّلته إياه ابنته قسراً، وبعد أن التحف بغطاء العروس المرقّط كجلد النمر من رأسه إلى أخمص قدميه حتى لاتزعجه الصراصير تزحف من حوله.

مشهد الإفراج يبقيه في السجن حياً، مشهد الإفراج يحييه ويقتله ألف مرة واللحظات تكذبه لحظة بعد لحظة والأيام وسلسلة المفاتيح ترن في القفل المرة بعد المرة تحبس أنفاسه كل مرة، والباب الحديدي ينفرج ولاينفرج عن المنادي بالإفراج ينادي باسمه، ومن هوة العدم ينتظر من جديد المنادي بالإفراج ينادي باسمه، ربما في اللحظة المقبلة، ربما غداً، وعبد الله على يقين أن الأمر مزحة ثقيلة لن يلبث أن يبددها طلوع النهار، وملابسات عملية إلقاء القبض عليه تؤكد له هذا اليقين. أصيب الكل في اعتقاده ليلة القبض عليه، بمس من الجنون تجسد في سبابة اتهام تبين وأخرى لاتبين، وامتد الجنون من البيت إلى أقسام الشرطة والكفور والدساكر والنجوع والصحافة والإذاعة وعنابر السجون.

وتوقف عبد الله عن تعداد الأماكن والأجهزة وهو يجلس على حشيته المطاط في عنبر السجن خشية أن يصاب بمس الجنون الذي أصاب عائلته، وسوى ما بين أبيه المفروض أنه خرف وابنه المفروض أنه عاقل، وامتد فيما يبدو إلى بقية سكان العنبر التسعة من السياسيين. وجودهم في حد ذاته في السجن غريب، يتوقعهم الإنسان شبابا، وهم فيما عدا شاب يكبر ابنته بسنوات قليلة كهول منهم من هو في سن أبيه. قال أبوه «عائدون إلى السجون عائدون» وهاهم قد عادوا. ولكن أين موقع الشاب من كل هذا وهل انقلبت الآية والتزم الشاب الحذر وجن الشيوخ؟ وأي زمن هذا الذي يجبر الشيوخ على المجازفة والمجازفة بالكثير؟ موقع هذا الرجل النحيل أخضر

العينين خمري اللون في مقعد وثير وفي يده كتاب يوشك أن يقلب صفحته التالية... وموقع هذا الشيخ الجليل وردي البشرة في البيت يلاعب أحفاده، وخلف المكتب الأنيق يتأتى أن يجلس هذا الرجل المهندم الذي يتحدى بأناقته القذارة والحشرات وطعاماً لايصلح لآدميين، وفي المحكمة لافي السجن ينبغي أن يكون هذا المحامي شامخ القوام داكن السمرة أبيض الشعر. وجودهم في السجن غريب، وإن لم يعد هناك شيء غريب في هذا الزمن العجيب، والأغرب منه تقبّلهم لهذا الوجود وكأنه من طبائع الأمور. تؤرقه ضحكاتهم وهم يتأهبون لإقامة طويلة في السجن أسفر عنها تحليل للموقف السياسي لايأخذ في الاعتبار حالته شديدة التفرد والخصوصية. يغلق أذنيه دونهم عامدا، وإن استغلقت عليه معظم الوقت مصطلحاتهم. تصله كلماتهم أحياناً تحول بين مشهد الإفراج والاكتمال.

وفي انتظار الإفراج جلس عبد الله في ركن قصيٍّ من العنبر اختاره بدقة تؤكد للمسؤولين اختلافه عن بقية المساجين من السياسيين، وخصوصية وضعه شديد التفرد، فالحكومة قد ارتكبت في حقه خطأً تشفع لها فيه نوبة الجنون التي اجتاحت البلد. وهي لن تلبث أن تكتشف خطأها وتصححه ويعود كل شيء إلى ماكان.

وليلة بعد ليلة يلملم عبد الله مشهد الإفراج من عدم، يبدل فيه ويجدد، يصل به إلى لحظة الانتصار المرة على بوابة السجن وضابط المباحث وقد ظهر الحق وزهق الباطل يعتذر عن خطأ الحكومة، وسبابة الاتهام تنحسر عنه، وهو منتصر على ضابط المباحث وعلى غرفة العمليات وعلى هذا الأعلى والأوحد الذي ينسب إليه قرار السجن وقرار الإفراج وفي حالته شديدة التفرد قرار الخطأ والرجوع عن الخطأ، يقول في أريحية تجعل الدموع تطفر في عيني ضابط المباحث:

– عفوا يا أخي العبرة بالخواتيم.

المهم أن يعود كل شيء إلى ما كان وأن تنحسر عنه سبابة الاتهام تبين

ولاتبين، فلم تعد به قدرة على مزيد من الاحتمال من لحظة عاد إلى البيت من الجمعية الاستهلاكية وسبابة الاتهام لاتريم.

في مديرية أمن القاهرة أطلق الضابط كبير الرتبة سبابته أفقياً مُديناً له، وقرر أن غرفة العمليات لاتخطيء. وفي الطريق إلى سجن طره تنهد ضابط الشرطة وهو يجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي لعربة مكشوفة وطلب اللطف من الله، واثنا عشر جندياً مدججون بالدروع والأسلحة يقومون على حراستهما. وملّ مأمور السجن فيما يبدو كثرة الاستدعاء من منزله في أعلى السجن لاستقبال المزيد من المقبوض عليهم فلم يستكمل ارتداء زيه الرسمي واستقبله بمنامته في الساعة الثالثة صباحاً وهو يخفي قدميه العاريتين خلف المكتب مكتفياً بالكاب على رأسه والقايش حول وسطه. وقال المأمور ليلتها إنه عبد المأمور وأشار بسبابته رأسياً إلى مسؤول أعلى وأوحد، وشاء السجان الذي قاده إلى العنبر ألا يتورط فأراح سبابته وقال:

- ياعم احنا ناس غلابة بنجري على رزق العيال.

يتجه اهتمام ضابط المباحث المختص بالعنبر إلى السياسيين من السجناء دونه، يتلاعب بهم ويتلاعبون به، كل على طريقته، هذا الرجل الأسمر النحيل أخضر العينين، في منتصف السبعنيات من عمره التحف بالصمت المختنق باللعنات، ما أن تقع عيناه على ضابط المباحث حتى يرفع ساقا على ساق حتى وهو ممدد على حشيته، إن تكلم وهو لا يتكلم مع ضابط المباحث وقل ما يتكلم مع الآخرين خرجت كلماته مذبوحة وأنبوبة الأوكسجين الطويلة تلقي بظلها الكئيب على وجهه الوسيم. أنبوبة الأوكسچين لا تفارقه بعد أن أُصيب بذبحة قلبية في السجن ولا ترفعه الجريح. الرجل المهندم في أواخر الخمسينيات يدخل في سجال سياسي مع ضابط المباحث، يرقبه الشيخ الوردي البشرة في السبعين في هدوء وطبقة من الدموع لا تريم تزيد عينيه التماعا، ما أبرع الرجل المهندم في السجال! كلماته طلقات رصاص ملفوفة في طبقة من السكّر كما اللوز في ملبّس الأفراح. تعلو الضحكات والمهندم

يساجل ضحكاته خشنة متحدية جارحة ومجروحة، وكل يودع ضحكته معاناة عمره ويتدخل الشاب يكبر ابنته بسنوات كما الطاووس فاتح الشعر أبيض البشرة ممشوق القوام، يحول النقاش إلى وجهة أكثر عملية، ينتزع والآخرون كل يوم حقا جديدا من الحقوق التي تكفل أوضاعا أكثر آدمية، مهددين بالإضراب عن الطعام، أو بتسريب الأخبار إلى وكالات الأنباء ليعرف من لا يعرف طبيعة السجون في عهد السادات والمحامي أبيض الشعر في الخمسينيات من عمره نافذ الصبر يبصق على الأرض في وجه السجن والسجان ويرقب عبد الله وهو مبهور رغم أنفه بما يرى ولم يعد يدري هل يرضيه انصراف اهتمام ضابط المباحث عنه أو يغضبه.

تلمس عبد الله لضابط المباحث الأعذار ووجد في انصراف الاهتمام عنه الدليل على براءته فالضابط يحاول الإيقاع بالآخرين دونه. ولكن الأعذار وهت يوما بعد يوم وصلته بالعالم الخارجى تنقطع فلا يعود يعرف إن كان أهله قد ماتوا أم هو الذي مات. دوار الجوع يلازمه يسقط الفاصل بين الواقع والحلم ويسلمه في رفق إلى مشهد الإفراج، وضابط المباحث يسقط من عليائه معتذرا عن خطأ الحكومة وخطئه وهو يتعالى على ضابط المباحث والحكومة والصغائر ويتظاهر بالعفو والغفران.

وفي هدأة الليل وفي سكينة الفجر يصوغ عبد الله مشهد الإفراج، ويعاود صياغته وهو يقبع في ركنه الذي كان نائيا ولم يعد على مر الأيام ... ينفتح باب العنبر على مصراعيه وينادي المنادي بالإفراج باسمه. ويترك هو خلفه كل شيء يخرج كما دخل، كما لو كان لم يدخل. وعند باب السجن يصافحه ضابط المباحث مودعا في حرج واضح لا يخفى على أحد:

- ارتكبنا في حقك خطأ فظيعا يا أخي، لعن الله تشابه الأسماء، فلتغفر لنا هذه الهفوة.

ويتأتى عليه في لحظة الوداع هذه أن يمارس قدرا من السيطرة على الذات، حتى لا ينفجر لاعنا سنسفيل ضابط المباحث والحكومة والمسؤول

الأوحد والأعلى والدنيا بأكملها. ولن تكون السيطرة على الذات بالأمر الصعب على من تمرس العمر على ضبط اللسان، ولن يكتفي هو بإخفاء حقيقة مشاعره، بل سيذهب إلى أبعد من ذلك، سيبتسم ابتسامة تسامح عريضة ويقول بأريحية تجعل الدموع تطفر في عيني ضابط المباحث:

– عفوا يا أخي، جلّ من لا يخطىء، العبرة بالخواتيم. وربما تفوق على نفسه وأضاف:

– كلنا إخوة. ولا داعي للأسف.

وتأتي على عبد الله وهو يعاود صياغة مشهد الوداع كلما انهدم أن يصمّ أذنيه عن الكلمات تصله من الجانب الآخر من العنبر، وأن يستبعد من خياله ما حدث في بيته ليلة إلقاء القبض عليه، وهو يدرك أن كليهما يشكلان خطرا يحول بين مشهد الإفراج والاكتمال.

(٥)

طرحت مشاكل الجوع نفسها توحّد عبد الله غصبا وبقية المسجونين، وكان دوار الجوع يلازمه الآن ومعدته ترفض طعاما لا يصلح لآدميين وسكان العنبر من السياسيين ينتزعون الحق في شراء ما يحتاجون إليه من كانتين السجن بنقودهم المودعة في الأمانات، وما من نقود له في الأمانات، ولم يخطر في باله وهم يخططون لحياة جماعية ويوزعون ما اشتروا إلى حصص متساوية أنهم يدرجونه في هذه الحياة الجماعية، ولكنهم دون أن يدري أدرجوه.

ولم يتقبل عبد الله هذا الإدراج بسهولة، عنَى الإدراج الشعورَ بالحرج من قبول هبة من أغراب، وعنَى وهذا هو الأهم التخطيط للحياة في السجن والتسليم بالتالي بأن الإفراج لن يأتي غدا.

طال الحوار بينه وبين الشاب يكبر ابنته بسنوات وتعقد، ترى هل استمع إليه الآخرون؟ كان الحوار يدور هامسا بينه وبين الشاب طوال الوقت إلا بالطبع لحظة انتفض هو غاضبا وتحدث عن الحق والعدل وحقوق المواطنة، ترى ماذا كان رد فعلهم لكلام عرف هو ذاته مقدما أنه هراء؟ تجاوز الشاب هذا الهراء وبدا مهموما ومهتما بألا يموت هو جوعا، ولكن ماذا عن البقية؟ هل أسدل الرجل النحيل جفنيه على عينيه الخضراوين يستبعده من المشهد متألما، وأشاح الرجل المهندم بوجهه حتى لا يرى أحد ابتسامته وأطرق الشيخ الوردي البشرة رأسه يائسا منه ومن الدنيا وتأفف المحامي نافذ الصبر لا يعرف اللف ولا الدوران وهو يستمع إليه يتكلم عن الحق والعدل وحقوق المواطنة؟ لم يلحظ هو أحداً لحظتها ولا رأى شيئاً وهو منهمك في الدفاع عن حقه في الإفراج والشاب المهموم يسايره على قدر عقله وكأنما هو طفل. ترى متى وكيف اختاروه مندوبا عنهم فى مهمة يعرف ويعرفون أنها حساسة؟ هل عقدوا جلسة وحسموا الجدل الطويل بالتصويت كعادتهم؟ ماكان أحراه أن يقبل من البداية ومامن اختيار آخر ويوفر على نفسه سلوك الغريق الذي يتشبث بقشة.

طال الحوار بينه وبين الشاب الذي جاءه بحصة الأسبوع والأدوات الضرورية للمعيشة وشيء ما في منطق الشاب يذكّره بمنطق أبيه قبل أن يصاب بالخرف واستحال الحوار والشاب يقفل دونه أبواب الرحمة، ويشككه في أمل الإفراج القريب وانفرج انفراجا جزئيا والشاب يستخدم لغة يفهمها، ويستكتبه إيصالا بثمن حصة الأسبوع كدين يستحق السداد، ولو لم يستوقف هو الشاب لانتهى الأمر عند هذا الحد ولكنه استوقفه.

جلس عبد الله مستندا إلى الحائط والشاب على الطرف الآخر من الحشية ممددا ساقيه على البلاط وبينهما علبة من الكرتون تحتوي طبقا وكوبا للماء وملعقة من البلاستيك وحصة الأسبوع، صابون للوجه ومسحوق لغسيل الملابس. لفة ورق لدورة المياه، شاي وسكر وجبن أبيض وحلاوة

طحينية وبعض العلب المحفوظة من السردين والبلوبيف.

– لا تشغل بالك، إدارة السجن منعت إيداع نقود في الأمانات بعد الليلة الأولى، ولابد وأن أهلك حاولوا إيداع نقود باسمك بدل المرة مرات.

وشعر هو بالامتنان والشاب يصل ما انقطع بينه وبين أهله، ويمده بمعلومات استعصت عليه عن منع الزيارة، ووجبات الطعام من الخارج وتبادل الرسائل بين المتحفظ عليهم والأهالي. ولكن هذا الشعور بالامتنان لم يسقط بحال تحفظاته على قبول هبة من الأغراب، ولا على إدراج حالته الاستثنائية في بقية الحالات

– أنا الآخر لا نقود لي في الأمانات، ونحن نعيش هنا عيشة جماعية.

قال الشاب، ورد هو حريصاً على التفريق بين حالته وحالتهم.

– أنتم.

– السجن هو الذي جعلنا نحن .. وأنت سجين.

جاءت إجابة الشاب يكبر ابنته بسنوات سريعة وكأنما أعدها مسبقا، وأغمض هو عينيه رافضا لهذه النحن التي لاهو راغب فيها ولا قادر عليها وقال:

– سجين إلى حين.

وتساءل الشاب في هدوء:

– هل تبقى على لحم بطنك من سبتمبر إلى أبريل على أقل تقدير؟

وانتفض هو غاضبا مزيحا بلا وعي الكرتونة التي تحتوي مستلزمات المعيشة في السجن.

– أي أبريل؟ أنت لا تفهم الموقف، قُبِضَ عليّ من باب الخطأ، الحكومة أخطأت في حقي.

– وفي حق الجميع.

وانتوى هو ألا يُستدرَج بحال إلى مناقشة عن عدل الحكومة ومداه، وقال يركز على موضوعه شديد الخصوصية والتفرد:

– سيفرج عني قريبا، بمجرد أن تكتشف الحكومة خطأها.

– ولصالح من تقدم الحكومة الدليل على أنها أخطأت؟

قال الشباب وارتد هو إلى الخلف محاصرا والتساؤل مقنعا يواتيه، وتبين ألا مهرب من مناقشة موضوع العدل فقال:

– لصالح الحق والعدل.

وأدرك بلاهة ما قال بمجرد أن قاله وأضاف مستدركا:

– لصالحي أنا.

– ومن أنت؟

تساءل الشاب بلا استخفاف، مجرد سؤال تقريري يسد عليه باب الرحمة، يذكّره وهو لم ينس، أن الحكومة طلبته اسما دون أن تعرف له صورة ولا وصفا ولا سنا، وأخطات فيه أباه الهرم وابنه الشاب على السواء، وقال بصوت هامس لا يكاد يبين:

– أنا مواطن.

وتوقع أن يبتسم الشاب، وحين لم يفعل، ضحك هو ضحكة قصيرة ليشاركه الشاب الضحك ولكنه لم يفعل، بدا مهموما وهو يميل عليه يقول:

– وماذا لو اعتبرنا هذه الأشياء دينا قابلا للسداد؟ ويمكن أن تكتب إيصالا بذلك. وبدت له لغة الشاب مفهومة للمرة الأولى، ومال إلى قبول الاقتراح وقد أزال عنه بعض الحرج وإن أبقى على بعض من تحفظه:

– ومتى أسدد الدين؟

وصمت الشاب قليلا، ثم قال في بطء وكأنما ينتقي كلماته:

– تستطيع دائما السداد .. وأنت خارج السجن.

وما كاد يوقع إيصالا بأربعة جنيهات وخمسة وعشرين قرشا حتى تذكّر قول ضابط المباحث:

- القلم عندي أخطر من البندقية.

وتساءل هامسا في تآمر:

- أليس القلم من المحظورات؟

وابتسم الشاب:

- المحظور الوحيد في السجن هو أن نستسلم لما يريدون بنا.

ولو لم يستوقف هو الشاب لانتهى الأمر عند هذا الحد، ولكنه استوقفه يسأل:

- هل دخلت السجن بدل المرة مرات؟

- وكيف عرفت؟

ولم يشأ هو أن يُقِرّ أن الشاب يُذكّره بأبيه وما كاد يرتخي في جلسته حتى قال الشاب:

- أتريد أن تعرف خلاصة تجربتي. الإفراج لا يتأتى في السجن إلا لمن لا ينتظر الإفراج.

ولم يتوجس هو شرا حتى هذه اللحظة، وأدرج عبارة الشاب في إطار العبارات الغريبة التي ترددها ابنته أحيانا ولكن الشاب لم يلبث أن عاجله بالضربة القاضية حين قال:

- يجَنّ الإنسان في السجن إذا ما انتظر الإفراج غدا.

وانسحب مرتبكاً ومهرولا.



في محاولة أخيرة للإبقاء على أمل الإفراج الذي تبدد أوكاد، طالب عبد الله يومها بالانتقال إلى سجن انفرادي مضيفا إلى سلسلة الحماقات حماقة جديدة يحمد الله أنها كانت الأخيرة وقد نال ما يستحق عنها ويزيد.

سأل ضابط المباحث المختص يومها كما يسأله كل يوم عن آخر التطورات، وأجاب الضابط في استخفاف كما يجيب كل يوم:

– الحالة قيد البحث.

ولم يتراجع لحظتها عن مطلبه بالانتقال إلى سجن انفرادي إلا حين رحب به ضابط المباحث في زنزانة التأديب ومافي السجن مكان خالٍ سواها.



توهّم عبد الله وهو يستقبل أباه للإقامة في بيته أن الزمن قد دار دورته ليثبت أن طريقه هو دون طريق أبيه هو طريق السلامة ومامن طريق للسلامة. حسب أنه آمن من المزالق وما أحد بآمن. الإدانة التي تدمغه هنا دمغته هناك في البيت والسجن على السواء فهل يأتي الوقت الذي يطالب فيه بالتحقيق في سجله؟! من لحظة وقعت زجاجة الزيت وانكسرت، وسبابة الاتهام تطارده، من لحظة قلب إناء الماء وصاح في أهل بيته:

– مظلوم ياعالم.

والماء دافقا ينسكب من الإناء يتعكر بالزيت وطين البلاط يتكوم آسنا في الأركان والسكون المتوتر بالإدانة يلجم الكل يخرس العيال، يسقط سبابة الأم تستمطر اللعنات على الظالم، يقفز بابنه الراكع تحت قدميه واقفا في احتجاج، يميل بابنته نحوه تقول:

– فلتكن الشهادة اختيارا .

شاءت البنت أن تدثره في سجنه، وتمنّع هو متدثرا بوهم الإفراج،

قالت: اطمئن سنكون بخير، وفتح فمه ليقول أنه عائد لتوه، وحمد الله أنه لم يقلها ولوصار التحقيق مطلبه بدلاً من الإفراج لتمخض خرف أبيه عن نبوءة نبيٍّ، ولاكتسب الغضب الصبياني لابنه المعنى ولانطوي كلام البنت الغريب على لب الحقيقة. وكان التحقيق قد أصبح دون أن يدري مطلبه.

(٦)

لكل شريطهُ المسجل بالصوت والصورة أحيانا، وتُعزّي عبدَ الله حقيقةُ أن مَن أنت يبقى بلاشريط.

جاءت الرسالة مهرَّبَة من عنبر من عنابر السجن على ظهر ورقة للفِّ السجائر اكتشف أوائل من خرجوا للتحقيق أن المخابرات والمباحث العامة دست، ومن زمن طويل، أجهزة الاستماع، وأحيانا أجهزة الاستماع والتصوير في البيوت والمكاتب والسيارات الخاصة وأجهزة التليفون لمعظم المتهمين، وأن لكل شريطه المسجل بالصوت، والصورة أحيانا. أعلن الخبر المحامي أبيض الشعر بصوته الجهوري «ليعلم الجميع» وأحرق الرسالة بعود من الثقاب، وألقى الرماد في المرحاض وصاح الشاب يكبر ابنته بسنوات:

– أولاد الكلب.

وعمت العنبر موجة من الصمت الثقيل وكلٌّ يستوعب الصدمة، ويبدأ في استعراض شريطه، ويبقى مَن أنت بلا شريط... والولد ينتفض واقفا وسط الصالة، يرتجف مبتلا كالفرخة المذبوحة... .

عدّد أبوه ليلتها تُهما لاحصر لها ولاعدّ وهو يتساءل أيها على وجه التحديد تهمته؟ وشر البلية مايضحك. ولو كان هو في وعيه ليلتها لأكّد لأبيه أنه انشغل بالوقوف في طابور الجمعية، بمتابعة تسعيرة الخضار في الجريدة اليومية، رغم يقينه ألا تسعيرة للخضار في السوق، بعداد النور يقفز

كالرمح وعداد المياه، بإحكام المزلاج على باب الشقة الخارجي، بشقوق في سقف البيت تتسع مع الأيام، فلم يفعل شيئا على الإطلاق. ومامن شريط لمن لايفعل شيئا... .

– خط الدفاع الأول هو الإنكار، على الأقل في هذه المرحلة المبدئية من التحقيق.

– هكذا أفتى المحامون داخل السجن وخارجه.

قال المحامي بنفس الصوت الجهوري ومال على النحيل أخضر العينين وأضاف هامساً:

– يُخجلني الإنكار لحد الموت، كيف يتأتى للإنسان أن يتنكر لأقواله وأفعاله ؟

وأجاب النحيل:

– القضية أخلاقية فعلاً... .

واستقام المحامي والرجل المهندم يوجّه إليه السؤال:

– حتى في حالة المواجهة بالشريط ؟

واستعاد صوت المحامي جهوريته وهو يجيب:

– حتى في حالة المواجهة، المهم ألا تتضارب أقوالنا في هذه المرحلة الأولى من التحقيق. من شأن التضارب أن يمكنهم من خلق قضية حيث لاقضية، من اختلاق تهم حيث لاتهم محددة حتى الآن.

واستوقفت عبد الله الإجابة كما لم تستوقف أحداً من المتحلقين حول المحامي أبيض الشعر. هذا هو الفجر بعينه، كيف يستطيع الإنسان أن ينكر صوته ؟ وهل يصدقه المحقق إن فعل، وما جدوى الإنكار إن لم يصدقه ؟ وحمد الله من جديد ألا شريط له يستوجب المساءلة ولا المواجهة، ودهمه المشهد في البيت ليلة إلقاء القبض عليه مغيّبا للنقاش الدائر حول جواز الإنكار من عدمه، وانحبس وأهل بيته في المشهد محاولاً، كما لم يحاول من قبل

فهم ما استغلق عليه في تلك الليلة.

ولا يعرف هو حتى اللحظة ما أراده أبوه على وجه التحديد، كان الرجل يرتجف وهو يسائله أي تهمة هي تهمته. بم ارتجف؟ بالرغبة في أن يكون ابنه بريئاً أم جانيا؟ وهل خرف الشيخوخة هو الذي جعل الأب يرتجف أملاً في أن يكون ابنه جانيا، أم ومضة عقل بددت للحظة حالة الخرف؟ ولتكن الشهادة اختياراً على حدّ قول ابنته؟ وارتعد وهذا السؤال الأخير يواتيه، وأسند رأسه المحموم إلى حائط السجن يستمد البرودة من رطوبته، وتساءل من أي أعماق نبع هذا السؤال الغريب، هل تغير إلى الحد الذي تختل فيه نسب الأشياء فلا يعود يفرق بين الصالح والطالح؟

ونبهه صوت داخلي إلى خطورة التفكير، وأدرك أن مصرعه يكمن في الرغبة في الفهم والمعرفة ولو لم يستسلم للرغبة في حل فوازير رئيس الجمهورية لما فقد ليلتها السيطرة على وابور يقول توت توت وينسب الإخلال بالوحدة الوطنية إلى كل الضمائر. وانتوى أن يكف عن التفكير فيما حدث في البيت ليلة إلقاء القبض عليه، ولكنه كان قد قطع شوطاً طويلاً في طريق اللاعودة، وتحتم عليه أن يفهم ما استغلق عليه فهمه من سلوك الولد تلك الليلة.

ارتجف الولد مثلما ارتجف جده برغبة ما، فبأي رغبة ارتجف؟ وهل غضب الولد لأنه قلب الماء في وجهه، أم غضب لأنه صاح في أهل بيته مظلوم ياغالم؟

هل استكثر عليه الولد أن يجأر بالشكوى في ظل وضع لاتغيّر منه الشكوى ولاتبدّل؟ يستغلق عليه سلوكه هو شخصياً بمدى ما يستغلق عليه سلوك الولد، ويبدو من الأساسي الآن أن يفهم لم فقد صوابه أصلا وقلب الماء في وجه الولد. لماذا لم يتقبل سلوك الولد رغم شذوذه وخروجه عن المألوف، كمساندة من ابن لأبيه في لحظة محنة؟ ولِمَ غضب هذا الغضب الجنوني والولد يعدّ في اعتداد أجوف صفات المتحفظ عليهم؟

للحظة استكان هو للرجفة في أصابع الولد، وودّ أن يجاريها برجفة مماثلة تسرُّ للولد بحكاوى العمر التي دوت حكاية بعد حكاية ومامن أذن تستمع، ولم تسعفه ساقاه، وودّ لو ينهال عليهما بقبضتيه يجري فيهما الحياة. وشلت يديه نبرة الاعتداد تخنق أنفاس الولد وهو لم يزل يعدد صفات المتحفظ عليهم. ولم يبرأ من الشلل الطارىء الذي أصاب ساقيه إلا لحظة أدرك، ومؤخراً، أن الولد يدرجه كما تدرجه الحكومة في قائمة المتهمين. وبلغ الشعور بالظلم منتهاه فقلب الماء في وجه الولد وصاح:

– مظلوم ياعالم.

تساءل عبد الله أكان الولد يرتجف خوفاً عليه أم رغبة في أن يكون قد فعل مايدرجه في قائمة المتهمين؟ وأخافه السؤال فأغمض عينه، ومن الأغوار طفت إلى وعيه نظرة الرجاء الخائب في عيني الولد وهو يقف برهة في الصالة، نظرة تدينه لأنه لم يفعل، تسقطه من عرش الأبوة وتغلق دونه الباب.

وهبّ عبد الله واقفاً تحت وطأة الإدانة والتصق بحائط السجن محتمياً، وتمتم بصوت يكاد أن يكون مسموعاً لرفاق العنبر:

– وأنتم أيضاً؟ ألا يكفيني ما أنا فيه؟

مخاطبا ابنه وأباه.

وتأتي على عبد الله وإدانة ابنه تطارده أن يفعل شيئاً ما يستوعب غضبته، ولم يكن الدور دوره في مسح البلاط وفقاً للجدول الذي يوزع الاختصاصات على سكان العنبر ولافي تنقية العدس والأرز من الحصى، ولافي حرق الجرائد المهربة، وإغراق الرماد المتبقي في فتحة الدورة بدلو من الماء بعد دلو قبل أن يفتح السجان باب العنبر ويضبط الواقعة ويتم استدعاء مأمور السجن ويفتح المحضر وتبدأ عملية التفتيش وتنتهي دون أن تتمخض عن المنشور الذي لايكف ضابط المباحث يبحث عنه والمنشور بحروف الدم انكتب وهم منشغلون بالتفتيش في عقول الناس وضمائرهم. وقيل إن الظالم سقط

وما سقط، ولكل شريطه المسجل عندهم. والناس باتت تأكل بعضها البعض والإنسان لايعرف من أين تواتيه الإدانة والأخ لم يعد يعرف أخاه ولا الابن أباه وتمتم عبد الله غاضباً من جديد:

- وأنتم أيضاً

وكان قد تعلّم أن اللافعل في السجن أخطر من أسلحة السلطة مجتمعة، وأن الفعل اليدوي وِحده الكفيل بإستيعاب غضبه، فقرر أن يتطوع بمسح البلاط، تساءل على من الدور اليوم ليعفيه من المهمة، وارتاح وهو يلمح الشاب يكبر ابنته بسنوات يجمع أدوات التنظيف يملأ الجردل. الرجل حساس ولماح وسيدرك ولاشك مدى حاجته إلى عمل يستوعب غضبته المدمرة، ثم إن لديه الأكثر والأهم ليفعله وهو منشغل بالاتصال ببقية العنابر، وبالتنبؤ بحملات التفتيش والتأكد من التزام كل فرد بإجراءات الأمن. وإخفاء الأقلام والأوراق والراديو الصغير في حجم الكف في باطن الأرض قبل أن تبدأ حملة التفتيش، ولاشك أن الرجل سينزل له راضياً عن دوره في مسح البلاط في هذا اليوم الأسود الذي يستوجب التفكير فيما جد اكتشافه من وجود شرائط تسجيل.

وكاد عبد الله يقلب الجردل في وجه الشاب يكبر ابنته بسنوات حين تمنّعَ وأبى أن ينزل عن دوره في مسح البلاط. وعاد إلى مكانه يلهث وهو يدرك أنه يقف على حافة فقد الصواب والإدانة تواتيه من كل ناحية... ليس حبا في مسح البلاط تمنع الرجل ولكن خوفاً أن تعلق به شبهة استغلال. في حساسية غريبة تعامل معه الشاب، وحق له أن يفعل فها هو من بداية السجن يعيش عالة على الآخرين.

ولا يعرف عبد الله هل ارتطم يومها صدفة بالشاب يمسح البلاط، أم تعمّدَ ومشهد الشجار بينه وبين ابنه يتشكل، وهو يلقي بملابسه القذرة في الإناء البلاستيك ويجلس ليغسلها. والماء يتطاير من الإناء وهو يلعن سنسفيل أبي الولد وجد الولد في دوائر تتسع، وكاد الجلباب يتمزق في قبضته وهو

يعدّد مآثره على ابنه وأبيه اللذين لولاه لماتا جوعاً. وأفاق على زرٍ من أزرار جلبابه يتهشم في يده وهو يميل في الخيال يضرب الولد الذي لايستحي.

وتساءل في دهشة وقد أفاق، أي عنف هذا ينطوي عليه جسده وأدرك كم هو أخرس وعاجز هذا العنف. ورث العنف عن أبيه ولم يرث الحلم فبقي عنفه أخرس وخمد غضبه وهو يعتصر الجلباب لايبقي فيه قطرة ماء وتساءل في أسى ماذا أورث هو الأولاد؟

وتوصل عبد الله وهو ينشر جلبابه على حبل الغسيل إلى حقيقة أنا المشهد الذي بناه لايليق ببالغ ولاعاقل واستعاد توازنه وهو ينتوي إعادة بناء المشهد، وفي طريق العودة إلى العنبر اعتذر للشاب يكبر ابنته بسنوات قليلة، وسحبه الشاب برفق إلى جانب وقال:

– من المتوقع أن يستدعوك للتحقيق قريباً.

ولم يفاجئه بحالِ الخبر، كان الآن على يقين أن التحقيق معه قد بدأ. وأضاف الشاب:

– من المستبعد أن يكون لك شريط، وعلى كلٍ فخط الدفاع الأول هو الإنكار أيا كانت التهمة.

ولدهشته وجد نفسه يقول في هدوء وفي يقين قبل أن ينسحب إلى مكانه

– لكل شريطه.

وقرّ في اعتقاد عبد الله أن الحكومة تربصت له دائماً بتهمة ما، طاردته أينما حلّ، وإلا فيم استبق الأحداث وتوقّع المصائب، وإلا فيم التزم دون غيره بالأوامر والنواهي؟

– مامن واحد مثلي إلا ويرتكب مخالفة لايعرف ماهي.

قال له الساعي العجوز في المصلحة وهو يرصد ردّ فعله لحكاية حكاها لتوه. استوقف الساعي رجل في الشارع وضربه «قلماً» على خده، وبدلاً من

أن يثور الساعي ويرد للرجل القلم قلمين، وجد نفسه يسأل الضارب:

– ماذا فعلت؟ وأين أخطأت؟

ورصد الساعي نظرة الاستنكار التي تبدّت في عيني عبد الله بعد أن سمع الحكاية ولم يفته التعليق عليها، توقف عند الباب قبل أن ينسحب وقال وهو يحمل صينية القهوة:

– مثلي دائماً في الخطأ، ولو كنتَ مكاني لفعلتَ مافعلتُ أنا.

وطرق الباب خلفه.

وتنهد عبد الله بصوت سمعه رفاق العنبر وهو يُصدّق على كلامِ الساعي العجوز، يفعلها هو بدل المرة مرات وهو يأتمر بالأوامر التي تصدر له، ظالمة كانت هذه الأوامر أو عادلة، يفعلها وهو يتلقى صامتاً تعنيف رؤسائه وزملائه على السواء، وهو يزاح من الطريق وهو يراجع الحسابات في المصلحة بدل المرة عشرات حتى لايدسّ عليه أحد رقماً ويحتفظ بنسخة من الكربون ليبرزها يومٍ تقام عليه الدعوى. يفعلها وهو يقوم بعمل أفراد الإدارة مجتمعين حتى لاتوجّه إليه تهمة الإخلال بواجبات الوظيفة، وهو يهبّ من النوم يحكم رتاج البيت الذي سبق وأحكمه... يخاف ينهار سقف البيت، يخاف يفض خطاباً يحمل قرار الطرد من الشقة، يخاف البواب يدير شقق المساكن الشعبية بيوتاً للدعارة ولعب القمار... يخاف شرطة التموين تلقي القبض عليه وهو يشيح بوجهه عن عمليات التهريب في الجمعية الاستهلاكية، يخاف بائع الفاكهة على ناصية الشارع لم يعد يتعامل معه، ويحمد الله أن أحداً لايعرفه في السوبر ماركت والبوتيك، يخاف عسكري المرور ورجلا يستوقفه في الشارع يصفعه دون سابق معرفة أو احتكاك، يخاف أباه يقول كلما رأى وجهه:

– ألم أقل لكِ؟

يخاف يصرخ مظلوم ياعالم والماء يتعكر بطين البلاط، يتكوم آسنا في

الأركان، يخاف الولد يُغلق دونه الباب، والإفراج لايتأتى إلا لمن لاينتظر الإفراج، ولم يتبق لنا سوى احترام الذات فلنتمسك به ما أمكن.

(٧)

تساءل عبد الله وعيناه معلقتان بسقف عنبر السجن

– والآن ماهي التهمة التي توُجهها لي الحكومة؟

وماكاد السؤال يتبلور على لسانه حتى شعر بارتياح عميق ربما لأن الأسوأ أو ماتوهمه الأسوأ قد وقع، وربما لأنه عرف أخيراً أين يقف بعد أن طال تراوحه بين الأمل في الإفراج واليأس من الإفراج.

ومع السؤال الجديد أدرك الرجل أن جانبا منه كذبه وهو يكرر للمرة الألف، كما الاسطوانة المشروخة، دعوى خطأ الحكومة، وهو يكتب العريضة العشرين يشرح لأولي الأمر طبيعة الخطأ، ومامن خطأ. عرف أنه مدان وضابط الأمن عظيم الرتبة يقول: غرفة العمليات لاتخطىء، وهو يتوقف بمشهد الإفراج عند باب السجن لايتعداه يستبعد ماحدث في البيت ليلة إلقاء القبض عليه كضرب من الجنون. عرف أنه مدان وهو يطالب بالسجن الانفرادي تشبثا بوهم العمر. عرف أن الإفراج كان دائماً مطلبه حتى قبل أن يدخل السجن.

وشعر الرجل بقوة لاعهد له بها وبصفاء ذهن جديد عليه. وقرر أن يبدأ بتحديد تهمته وأن ينتهي بخط الدفاع الذي يحتاج ولاشك إلى مناقشة مع زملاء العنبر. وأدرك الرجل أن تحديد التهمة ليس بالمهمة السهلة، وهو لايعرف أياً من أفعال الإنسان تخضع لعقوبة الحكومة وأيها لاتخضع، والأفعال تفلت من قانون لتقع في قانون آخر.. ومثلي دائماً على خطأ كما قال الساعي العجوز. وهو لم يهن دولة صديقة، ولاتخابر مع دولة أجنبية. سأل

الرجل المهندم وقد ترددت تهمة التخابر منسوبة إلى عدد كبير من المتهمين داخل العنبر وخارجه.

– مامعنى التخابر؟

وأجاب الرجل المهندم:

–التعامل.

ولم يزدد هو علماً، وأضاف إلى قاموس الكلمات المستغلقة عليه كلمة التعامل جنباً إلى جنب مع كلمة التخابر. حسب أن أباه قد أتى ليلتها على كافة القوانين والتهم. واكتشف في السجن أن أباه لم يعاصر قانون العيب. وعن فحوى قانون العيب سأل المحامي أبيض الشعر وأجاب بما يعني أن الاستهجان جريمة والاستحسان أيضاً وأضاف محاولاً إنقاذه من حيرته.

– المهم هو الإطار، وأنت بخير طالما استهجنت ماتستهجنه الحكومة، واستحسنت ماتستحسنه.

وتنهد الرجل متعجباً والإنسان يولد مُداناً بتهمة الاستحسان مرة وتهمة الاستهجان أخرى فما من إنسان يدبّ على وجه الأرض لايستحسن ولايستهجن. وتنبه إلى أن تهمته هي تحديد التهمة الموجهة إليه لاتأمُّل وضعية الإنسان ومدى العدل في هذه الوضعية. المهم هو الإطار كما قال المحامي أبيض الشعر والمصيبة حقاً أنه لايعرف هذا الإطار نتيجة لتحريمه السياسة على نفسه وعلى أهل بيته. وجد من اللجاجة أن يسأل أبيض الشعر عما تستهجنه الحكومة وتستحسنه ومن غير المفيد أيضاً، فعلم ذلك يبقى عند ربي، ومامن مخلوق يمكن أن يحيط بكل ماتستهجنه الحكومة وتستحسنه ولا أن يتنبأ بتقلبات مزاجها في هذا المضمار الوعر. ووَدّ لو تلقّى إجابة على السؤال الذي أثاره أبوه عن من هم أعداء الدولة الآن والأصدقاء؟ وخاصة أن خريطة الأعداء والأصدقاء لاتكف تتغير كل يوم ولايملك متابعتها رجل يتلطع في طابور الجمعية ومحطة الأتوبيس بالساعات.

واستعرض الرجل شريطه في صفاء ذهن جديد عليه، وتوقف عند اليومين السابقين على سجنه حيث لم يجد فيما سبقهما مايستحق الوقف. مؤسف أن تطّلع الحكومة على ماحدث في بيته ومرعبٍ أيضاً، ولكن لنضع الأسف جانباً والرعبٍ، فالمصيبة قد حلّت والشريط قد سجل، ولايتأتى تغيير الشريط والرعب لن يزيد الوضع إلا تعقيداً. عاش عمره يهرب ولامجال للهرب، يحكم المزلاج على باب بيته ولاباب للبيت، يخاف ينهار السقف والسقف منهار، يتحاشى المصائب وهو غارق فيها ويتأتى الآن أن يواجه، أن يلتف على التهمة وأن يخرج بجلده سالماً. واستعرض الرجل المشهد ليلة إلقاء القبض عليه طويلاً مقلباً أرجاء المشهد، وخلص إلى حقيقة أنه لم يكن ليلتها في حالة تمكّنه من الاستهجان والاستحسان. لكل استهجن واستحسنٍ عداه. حتى زوجته لم تكف تستهجن وهي تستمطر اللعنات على الظالم. وتحيّر في التوصيف القانوني لحالة عدم الاستحسان والاستهجان هذه خاصةً وأن المشهد انطوى على الكثير مما تستهجنه الحكومة.. ووانته صرخته في آخر المشهد مظلوم ياعالم، تعادل الصرخة التي أراد أن يطلقها استنكاراً لقول أبيه: سمموا الآبار وأهلكوا الزرع، ولم تخرج من فمه، وتعادل، وهذا هو الأهم، التهم التي كالها أبوه للحكومة ومن شأنها أن توقع الإنسان في ألف داهية.

وسرت الرجفة إلى جسد عبد الله وذاكرته تسعفه بالتهم التي عدّدها أبوه واستعصت من قبل على ذاكرته.. أراد الأب أن يعرف إن كان ابنه قد لغّم بالديناميت قطاراً محملاً بالجنود البريطانيين أم عطل مسيرة السلام في الشرق الأوسط، وإن كان قد أحرق سيارات الجنود الإنجليز في ميدان الإسماعيلية أو العلم الاسرائيلي في نقابة المحامين، وأراد الأب أن يعرف على وجه التحديد إن كان هو قد تآمر لقلب نظام الحكم أو اكتفى بالتحريض على كراهيته بتوزيع منشورات معادية، وإن كان قد تخابر مع الولايات المتحدة أم مع الاتحاد السوفيتي ودول الرفض والتصدي.

وأبطل هو ليلتها كل التهم التي فهمها ولم يفهمها بصرخته مظلوم

ياعالم. جاءت خير ختام للمشهد رغم أنف الولد، وجدّ الولد. وعلى كل فما من محقق في وعيه يمكن أن يأخذ أباه مأخذ الجد وهو لايكف يخلط طوخ في ملوّخ والأمريكان بالسوفييت بالبريطانيين، وقلب نظام الحكم بإهانة رئيس الجمهورية.

تنهد الرجل ارتياحاً وهو ينتقل إلى المشهد ليلة خطاب رئيس الجمهورية. كان موقفه موقف استهجان على طول الخط هذه الليلة، واستهجان في الإطار المطلوب وفقا للمواصفات الحكومية، ولو كان مندوباً للحكومة في البيت في تلك الليلة لما تصرف خيراً مما تصرف. طالب بقلب محطة التليفزيون. هل المطلوب الابتعاد أو الاقتراب من السياسة في هذا الإطار؟ وأوقف، أو على أقل تقدير حاول إيقاف طابور توت توت وتصريف الضمائر الذي ينسب تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية للبشر أجمعين. هل يمكن أن تكون تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية تهمته دون أن يدري؟ ولكن على أي أساس وأين الدليل؟ صرخات الاستهجان التي أطلقها الصرخة بعد الصرخة تفلق الحجر والشريط، وتخرق عين العدو والصديق، فكيف يغفل المحقق عن هذه الصرخات؟ صحيح أنه لم يستحسن كلام رئيس الجمهورية ولو عرف بحكاية التسجيل لفعل، لكن الصحيح أيضاً أنه استهجن كل من استهجن كلام رئيس الجمهورية.

وتساءل عبد الله أين يدرج محاولته لحل فوازير رئيس الجمهورية بالاستعانة بابنه وابنته؟ هل يحتمل أن يعاقب على هذا الفعل، وتحت أي بند من البنود يندرج؟ ولم يلبث أن استبعد الاحتمال تماماً. إذ لم يكن من المعقول ولا المقبول أن يرفض الاشتراك في لعبة يطالبه رئيس الجمهورية شخصياً بالاشتراك فيها وهو يتحدث عن لويس السادس عشر الذي يريد أن يرجع بالتاريخ إلى الوراء، وعن صديق رؤساء تحرير الصحف ورؤساء الجمهورية، والرجل الذي خدعه تسعة وستين عاما واكتشف حقيقته في السنة السبعين. كان من الطبيعي وقد طرح رئيس الجمهورية هذه الفوازير أن

يسألِ هو البنت والولد وقد استعصى عليه حلها، وأن يتلقى الجواب. وإلافيمَ زودتهم الإذاعة ومن بعدها التليفزيون بالفوازير كل رمضان؟ وفيم دربتهم علي حل الفوازير كل رمضان؟ الصحيح أن رفض الاشتراك في حل الفوازير يعتبر إهانة لرئيس الجمهورية، وخاصة بعد هذا التدريب الطويل على حل الفوازير الذي امتد مالامتدت الحياة.

وخفق قلب الرجل بشدة، وهو على أعتاب الوصول إلى تحديد تهمته، سمع نفسه يصرخ المرة بعد المرة مطالباً بقلب محطة التليفزيون، ولم يكن بحاجة إلى أن يسأل إن كانت مطالبته بقلب محطة التلفزيون قد جاءت قبل أو بعد ظهور رئيس الجمهورية على الشاشة. صرخ وصورة الرجل تطالعه وقد انقلبت سحنته وانسحبت رقبته إلى الخلف وجحظت عيناه إلى الأمام تطق شراراً.

وهدأ عبد الله قليلاً بعد أن أفتى كافة المحامين من المساجين داخل العنبر وخارجه بأن القوانين، على كثرتها، لاتتضمن مادة تعاقب الإنسان على قلب محطة التليفزيون حتى إن جاء هذا القلب في وجه رئيس الجمهورية إلا إذا تعسف المحقق وأدرج المطالبة بقلب المحطة في بند إهانة رئيس الجمهورية.

وظل عبد الله يدعو الله كل ليلة أن يرزقه بمحقق غير متعسف إلى أن عاد الرجل المهندم من التحقيق بحكاية جعلت التنبؤ بما يحويه الشريط ومالا يحويه أمراً مستحيلاً.

(٨)

– هل يعقل أن أطالب بقلب نظام الحكم؟

وأجاب الشاب يكبر ابنته بسنوات تساؤل عبد الله قائلاً:

– لايعقل.

ورصد هو نبرة الإدانة التي انطوت عليها إجابة الشاب، وتجاوزها، تأتي عليه على ضوء ما استجد أن يواجه احتمالاً يعزّ على التصور:

— هل استمع إلى صوتي وأنا أطالب بقلب نظام الحكم؟

واستبعد الشاب الاحتمال، وأورد أسباباً للاستبعاد. ولكن ماعاد شيء مستبعداً وقلب محطة التليفزيون يمكن أن يتحول على يد الحكومة إلى قلب نظام الحكم. أما لهذا الكابوس من آخر؟!

— إنهم يزوِّرون الشرائط ليخلقوا قضية حيث لاقضية.

قال الرجل المهندم وقدعاد من التحقيق وانقلب العنبر الذي لم ينقلب يوم جاء الخبر بأن لكلٍ شريطه بالصوت والصورة أيضاً. حتى خيالهم الجامح عجز عن ملاحقة التطور المذهل الذي وصلت له حجرة العمليات. ماأشد تخلف أبيه؟ أهدر أنفاسه ليحدد له تهمته مسبقاً وعلم التهمة عند حجرة العمليات التي يعزّ علمها على كل عليم. هل يعرف أبوه أن حجرة العملياتِ تقصِ الشرائط وتلزقها، تدس المشهد على المشهد والكلمة على الكلمة لتنطق الناس بما لم ينطقوا به؟

— انقضى زمانك . نحن الآن في عصر «المونتاج».

قال عبد الله مخاطباً أباه وقد التقط كلمة«المونتاج» من الرجل المهندم يحكي الحكاية للمرة العشرين بناء على مايطلبه المستمعون، مبرزاً كل مرة إصراره على تسجيل الواقعة في محضر التحقيق:

— خط الدفاع الأول هو الإنكار.

يكرر كل مَن يلقاه وكأن الإنكار هو كلمة السر التي ينفتح لها الكنز، مامِن كلمة سر في حالته ومامن كنز. تساءل أبوه مَن هم أعداء الدولة الآن ومَن هم الأصدقاء ويبقى السؤال معلقاً بلا جواب. الإنكار يفترض نوعاً من الإقرار. إنكار ماتنكره الحكومة وإقرار ماتقرُّ. وهو لايعرف بماذا يقر وبالتالي ماذا ينكِر ثم كيف يتأتى أن ينكر الإنسانَ صوته؟ وقال الرجل المهندم:

– استوقفتني عبارة جاءت على لساني وقلت لنفسي ليس هذا منطقي ولا أسلوبي في التعبير.

وتساءل عبد الله إن كان له بدوره منطقه وأسلوبه في التعبير؟ وهل يُعقَل أن يَرِدَ قلب نظام الحكم في هذا المنطق والأسلوب؟ وأجاب الشاب يكبر ابنته بسنوات:

– لايُعقَل

في نبرة لاتخلو من شبهة الاستهانة والإدانة... وتوقفت أنفاس السامعين الذين استمعوا إلى حكاية الرجل المهندم بدل مرة مرات وهو يصل إلى لحظة الذروة في الحكاية:

– أمعنتُ السمع وإذا بصوت غريب يدخل في التسجيل، يأمر بإيقاف الشريط محتجاً ويقول: ليس هكذا.. إنكم تفسدون عملية«المونتاج».

ويضرب الرجل المهندم صندوق الكرتون إلى يمينه:

– ضربتُ بيدي على مكتب المحقق، وأصررتُ على تسجيل الواقعة في محضر التحقيق.

ويضيف الرجل المهندم قبل أن يسأله سائل هذه المرة:

– لم يملك المحقق سوي الرضوخ، تمت الواقعة في حضور ثلاثة من كبار المحامين. وتعم الجميع موجة من البشر وكأن تسجيل نقطة ضد الحكومة هو غاية المراد من رب العباد، ولايتبقى سوى أن يهتفوا كما في مباراة كرة: جول.

– هل استخدمتَ عنصر القوة في محاولة قلب نظام الحكم؟ سأل المحامي أبيض الشعر عبد الله وأضاف:

– اطمئن، تهمة التآمر على قلب نظام الحكم لاتُدين الإنسان مالم يتوفر عنصر استخدام القوة.

ولما احتج إنه لم يتآمر على قلب نظام الحكم أصلاً، بل لم يفعل شيئاً

على الإطلاق فقد المحامى اهتمامه وغسل يديه من الموضوع نهائياً. وآمن هو بأنه شهيد هذا العصر وكل عصر.

- الكل هنا متهم بقلب نظام الحكم، ولاتشغل بالك.

قال الرجل النحيل أخضر العينين وتساءل هو:

- حتى أنت؟

أجاب ببساطة متناهية وأنبوبة الأوكسچين تلقي بظلها على وجهه:

- حتى أنا.. هذه أبسط تهمة.

وصدمته هذه المعلومة الجديدة عليه، وكاد يبدأ في تصريف الضمائر بداية بالإناء ومروراً بكل الضمائر ناسباً تهمة قلب نظام الحكم إلى الخلق أجمعين، وأسعفته عبارة وردت في حديث الشاب يكبر ابنته بسنوات، قال الشاب إن التزوير لايأتي من عدم، وإنه يتطلب توافر مادة خام في مجموعة الشرائط تصلح للقص واللزق، وتندرج من خلال المونتاج في إطار تهمة محددة الملامح.

وعاود استعراض شريطه بحثاً عن مادة تصلح للقص واللزق. ثلاث كلمات قالها، ولم يقل غيرها، طالب بقلب محطة التليفزيون. وهذه الكلمات الثلاث لاتحتمل القص واللزق، ومن ثم لاتحتمل التزوير، وهو لا«يدردش» في السياسة مثل الآخرين، كما قال الشاب، ولاتملك الحكومة أن تركّب الجملة على الجملة والكلمة على الكلمة لتنطقه بما لم ينطق، واحتج أبوه بأن مامن أحد من أهل بيته يسرق قوت الشعب ويمتص دماء الناس، وتساءل ولم تتجشم الحكومة معه والأمر كذلك، كل هذا العناء، وفي خواء اليدين وبقع الزيت الدليل؟ وتعجب من حرص الحكومة على توزيع التهم، دون غيرها، على الناس بالعدل والقسطاس؟

واستعرض عبد الله استخداماته ليتبين إمكانية التزوير في كلماته الثلاث. كلمة قلب ترتبط في حديثه العادي بقلب البذلة القديمة لتصبح جديدة،

وقلب الجورب قبل لبسه حتى لايتهدل، وقلب قطع الباذنجان في الزيت المقلي، وكلمة محطة ترد في كلامه في اتصال بمحطة التليفزيون والراديو والسكة الحديد والأتوبيس والترام، ولايعقل أن يطالب إنسان بقلب هذه المحطات الأخيرة حيث لاتحتمل بحالٍ عملية قلب أو انقلاب.

– هل تآمرت لقلب نظام الحكم أم اكتفيت بتوزيع منشورات مناهضة له؟ قال أبوه وآمن هو بأنهم سمموا الآبار فعلاً وأهلكوا الزرع، وفي خواء اليدين وبقع الزيت الدليل. وتمنّى لو لم يكن قد استخدم كلمة قلب أصلاً ليقطع على الحكومة خط الرجعة، والفعل قد استخدم، وهو لايملك له كما تملك الحكومة تغييراً ولاتبديلاً.

– فكرت واستبعدت فكرة الهرب.

قالت البنت، وأضاف الولد:

– الهرب لايليق بأبي.

وتساءل هو ما الذي يليق به؟ أن يقفِ متهما بقلب نظام الحكم؟ وأسعفه تعبير نظام الحكم كالتعبير الذي لايرد في كلامه قطعاً، وتيقظت مخاوفه وما من أحد يستطيع أن يقطع بأنه لَم يستخدم في حياته كلمات نظام وحكم، ولاشك أنه تحدث أكثر من مرة عن نظام العمل في المصلحة وفي الجمعية الاستهلاكية ونظام المرور، وما الحياة اليومية إلا سلسلة من الأنظمة. وأقر أن من الصعب أن ترد في حديثه كلمة الحكم وإن لم يكن مستحيلاً، فهناك حكم القوي على الضعيف وحكم الأنذال فينا.

– أي أنذال تعني؟

سمع المحقق يقول وهو يردّ واثقاً:

– لم يحدث أن قلت هذه العبارة. ليس هذا منطقي ولا أسلوبي في التعبير. وتعزى عبد الله بحقيقة أن أداة التعريف اللازمة لقلب نظام الحكم لاترد في أيٍ من الأمثلة التي وردت على ذهنه وحقيقة أن الحكومة ملزمة بتزويد كلمة حكم بأداة التعريف إن أرادت أن تحكم التزييف، فقلب نظام

حكم مُجَهَّل غير قلب نظام الحكم.

ونشط لإعداد خطة دفاعه ضد تهمة قلب نظام الحكم وأداة التعريف تُسعفه أحياناً وتخذله معظم الأحيان. وأدرك أنه لايملك سوى الإنكار سلاحاً، وإن استبقى كل تحفظاته حول فعالية هذا السلاح وهو لايعرف حتى أعداء الدولة والأصدقاء.

واستطال اللقاء بينه وبين الشاب يكبر ابنته بسنوات، وتعقّدَ الحوار أحياناً وانفرج أحياناً أخرى وأسفر في نهاية المطاف عن التسليم بضرورة الإنكار وألابديل للإنكار. وخلال الحوار استغرب عبد الله من نفسه وهو يتقبل إدانة الشاب له أكثر من مرة، وهو يتجاوزها ربما لأنه تعود الإدانة تواتيه حتى من أهل بيته، وربما لأنه يدرك الآن أن الجهل بالسياسة الذي تحصّنَ به يرتدُّ اليوم إلى صدره. من زمن وأنت تلعب لعبتهم قال الشاب، وصدمه. سأل هو وقد انفرد بالشاب:

– هل يُصدّقنا أحد حين نُنكِرُ أصواتنا؟

وأجاب الشاب بالنفي، وتساءل هو عن جدوى الإنكار في هذه الحالة، وقال الشاب:

– لعبة لكسب الوقت. هم يلعبون ونحن نلعب.

ووجد نفسه يهمس مرعوباً:

– ولكنهم يلعبون على رقابنا.

– ويتأتى أن نلعب. مامن اختيار.

وساد الصمت الثقيل يفصل بينه وبين الشاب، قال وهو يتذكر مدى حرصه على تجنب السياسة.

– لم أشأ أن ألعب لعبتهم.

وواتته الإجابة قاطعة كحد السيف:

– من زمن وأنت تلعب لعبتهم.

وكاد يحتج بأنه لم يلعب على الإطلاق، لا لعبتهم ولالعبة غيرهم، وتراجع وهو يدرك أن الاحتجاج بأنه لم يلعب يحتمل في حد ذاته المزيد من الإدانة، وأرّقته حقيقة أنه لايعرف مافيه الكفاية لمواجهة المحقق وقال:

– مثلي لايعرف بماذا يُقِر وماذا يُنكِر.

– ألم أقل لك أنك تلعبَ لعبتهم مِن زمن طويل.

وقال هو يكتشف حقيقة غابت عنه طويلا:

– لأني لاأعرف؟

ولم يشأ الشاب أن يُعلّقَ قال:

– من الأسلم أن تُنكر على طول الخط.

واحتج هو هذه المرة:

– وماذا لو بدوت جاهلاً أمام المحقق؟

وقال الشاب:

– هذا هو المطلوب، يسوء موقف الإنسان القانوني بمدى ما يعرف.

وتبادلا الضحك طويلاً، واستغرق وهو يسمع نفسه يضحك وفي مثل هذا الموقف، وتذكر أنه لم يضحك من زمن طويل.

(٩)

سأل المحقق عبد الله عن اسمه وسنه وعمله وعنوان بيته، وخُيل إليه لوهلة أن ليس مِن الكذب في شيء أن يجيب على هذه الاسئلة بالقَول«لِم يحدث» وقد هدَّوِا عالمه وتركوا بدلاً من صورة الزفاف مِساحة بيضاء في زرقة الحائط التي دَكُنت مع الأيام بفعل التراب والهباب، وخيّل إليه لوهلة لم

يلبث أن تجاوزها مجيباً على الأسئلة، أن ليس من الكذب في شيء أن يقول «لم يحدث» وهو لم يعد ذات الرجل الذي دخل السجن. ولم يصبه التردد فيما تلى من أسئلة، وماحاد عن الصدق قيد أنملة.

– هل تنتمي إلى تنظيم حزبي؟

– لا.

– سري أو علني؟

– لا.

– هل أنت شيوعي؟

– لا.

– من الجماعات الإسلامية؟

– لا.

ونبّهه المحقق إلى خطورة استخدام كلمة«لا» وما ينطوي عليه تكرارها من الاستخفاف بالسلطات وترويج الإشاعات، وإهانة موظف حكومي أثناء تأدية مهام وظيفته وما إلى ذلك من تهم تخضع لقانون العقوبات. وصمم هو رغم كل التهديدات على استخدام كلمة «لا» متذكراً حيرة إدارة السجن في تصنيفه.

وأجاب بالنفي على سلسلة من الأسئلة حول التواجد في ندوة، في اجتماع، في معرض، في متحف، في مسرح، في بيت، فوق الرصيف، عبر الشارع، في القاهرة، في أسوان، في منوف، في الإسكندرية، في ليبيا، في دمشق، في الجزائر، في موسكو. واستفسر عن معنى«التعامل» مع دولة أجنبية، وأصرّ على تلقّي الإجابة على سؤاله قبل أن يستطرد في النفي رغم نظرة المحقق التي تقول له:

– مش عليّ ياواد انت، العب غيرها.

ولم يزده المحقق علما كما لم يفعل الرجل المهندم حين فسر التعامل بعد الجهد بالتخابر، واكتفى بالاجابة بالنفي، وقد تأكد له أن الكلمة متداولة إلى حد لايحتمل التفسير، تهمة التخابر التي هي تهمة التعامل بدون شرح ولاتفسير منسوبة إلى الخلق أجمعين، وأنا أتخابر، أي أتعامل وأنت مروراً بكل الضمائر.

وحين وصل المحقق إلى تهمة قلب نظام الحكم كان عبد الله قد وصل في استخدام اللا إلى طريق اللاعودة، وصمم على الإنكار سواء زيفوا الشريط أو لم يزيفوه، حولوا التليفزيون إلى نظام الحكم أو لم يحولوه.

وحين جاءت لحظة المواجهة التي تمنى في السجن أن يفلت ولو بالموت منها، وجد نفسه يستبعدها ببساطة متناهية. سأله المحقق إنَ كان مستعداً لسماع الشريط الذي يثبت تآمره على قلب نظام الحكم وأجاب في بساطة متناهية:

– لا.

وحين لم يجبره المحقق على الاستماع إلى الشريط بالقوة، بدأ يتشكك في قدرة الحكومة على تزييف الشريط بالشكل المطلوب، ثم في وجود الشريط أصلاً فما من أحد يستأذن أحداً، ولو ملك المحقق الدليل ضده لأجبره على مواجهته.

وسبح الرجل الذي لايعرف ماهي تهمته بحمد الله واللا وهو لايعارض اتفاقيات كامب ديفيد ولامعاهدة السلام، ولا التطبيع، ولا السياسة الخارجية ولا الداخلية ولايعطل مسيرة السلام في الشرق الأوسط بإهانة دولة صديقة.

وتوقف المحقق طويلاً حول موضوع التأييد والمعارضة، الاستحسان والاستهجان، وضاق ذرعاً بعبد الله لايؤيد شيئاً ولايعارض شيئاً، لا يستحسن شيئاً ولايستهجن شيئاً، وتراجع إلى الخلف راسماً الخطة المحكمة لهجوم جديد:

– هل تشتري حاجياتك من السوبر ماركت؟

– لا.

– من البوتيك؟

– لا.

– من محلات البيتزا؟ الكافتيريا؟ الويمبي الكنتاكي؟

وبدت له أسئلة المحقق تافهة للغاية وفي خواء اليدين وبقع الزيت إلدليل، ولكن المحقق استمر يصف أسئلته بترو شديد وبدقة شديدة، وكأنه يحكم الحبل علي رقبة من يواجهه المرة بعد المرة:

– هل تدخن سجائر أجنبية؟

– لا.

وضرب المحقق بقبضة يده على مكتبه وقال ونظرة الانتصار تلمع في عينيه:

– أنتَ تعارض إذن سياسة الانفتاح الاقتصادي.

– لا.

– وتقاطع البضائع الأجنبية.

– لا.

وهَبَّ المحقق وافقاً صارخاً في احتجاج:

– ألا تفعل شيئاً على الإطلاق؟

– لا.

وتوقع عبد الله قراراً بالإفراج وهو لايفعل شيئاً على الإطلاق بإقرار المحقق ذاته، ولكن المحقق لم يصدر قراراً بالإفراج، طلب من كاتب الجلسة استبعاد السؤال والجواب الأخيرين من محضر التحقيق، وشرع سبابته أفقياً ووجَّه إليه التهمة بصوت رتيب:

- منسوب إليك تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية.

وسادت لحظة صمتٍ متوترة وتأكد لعبد الله أن تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية هي تهمة مَن لايفعل شيئاً على الإطلاق. وأجاب بالنفي بحكم العادة وإن تأكد له أن النفي في هذا الإطار لايجدي:

- لا.

وبلغ غضب المحقق حداً لايستدعيه المقام وهو يقول:

- لا. ماذا؟

وأجاب صامداً وهم يلعبون ونحن نلعب:

- لا للإخلال بالوحدة الوطنية.

وأسدل المحقق جفنيه على عينيه وهو يستبعد عبد الله من مجال الرؤية وقال:

- هل لديك أقوال أخرى؟

وأُقفلَ محضر التحقيق دون أن يُدلي عبد الله الذي عرف أخيراً تُهمتَه بأقوالٍ أخَرى.

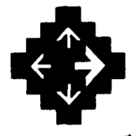


المحتويات

رقم الايداع ١٦٩٥ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977- 5406 -23- 4

مَا بيْنَ السُخط والجَدْب
تصدأ القيود

نالَ القَهْرُ من أسرةٍ، فتآكل طموحَ أفرادها في سعيهم إلى الحرية. ويكتشفون أنِ هشيم الزِجاج الذي كانوا يسيرِون عِليه، تَنْخَسَ أسنُتُهُ غلافَ الروح.
يقوم السردُ في مجموعة لطيفة الزيات بدور العِينِ الأخرى التي تتبين في جرأةٍ لونَ القيود، فهيِ تمزجُ ما بين الواقعيّ والفنتازيّ، الجليل والتافه، التَجريبي والتجريدي، التهكمِ والجديّة.
تجربة فنية تسْخرُ من أوضاعِ لا تتحملُ السخرية، وترسي قدرة الإنسان بغير حدٍّ على اجتياز ذِلّة الأزمة بانفجار اليقين.



دار شرقيات للنشر والتوزيع

